كيف نقرأ الكتاب المقدَّس

المتروبوليت كاليستوس وير

"كلُّ الكتاب هو موحىً به من الله" (2 تيموثاوس 3: 16)

كتب القدّيس تيخون زادونسك (1724-1783) قائلًا: "لو أنَّ ملكًا أرضيًّا، إمبراطورنا مثلًا، كتب إليك رسالةً، أما كنتَ لتقرأها بفرح؟ نعم بلا شكٍّ، كنتَ لتفعل ذلك بفرحٍ عظيمٍ وانتباهٍ شديد". ثمّ يتساءل ما هو موقفنا من الرسالة التي وجَّهها إلينا الله نفسُه. "لقد أُرسِلت إليكَ رسالةٌ لا من إمبراطورٍ أرضيٍّ، بل من ملكِ السماء. ومع ذلك، فإنّك تكاد تحتقر هذه العطيَّة، هذا الكنز الذي لا يُقدَّر بثمن". ويضيف القدّيس تيخون أنَّ فتْح هذه الرسالة وقراءتها هو دخولٌ في حوارٍ شخصيٍّ وجهًا لوجهٍ مع الإلَه الحيّ. "عندما تقرأ الإنجيل، المسيح نفسُه هو مَن يخاطبكَ. وخلال قراءتك، أنتَ تُصلِّي وتحادثه".

هذا بالضبط موقفنا الأرثوذكسيُّ من قراءة الكتاب المقدَّس. ينبغي لي أن أرى الكتاب المقدَّس كرسالةٍ شخصيَّةٍ من الله موجَّهةٍ إليَّ أنا تحديدًا. ليست كلماته موجَّهةً فقط إلى آخرين بعيدين في الزمان والمكان، بل كُتِبَت لي أنا بشكلٍ خاصٍّ ومباشر، هنا والآن. وكلّما فتحنا كتابنا المقدَّس، ندخل في حوارٍ خلَّاقٍ مع المُخلِّص. وفي إصغائنا إلى كلماته، نستجيب أيضًا. نجيب الله فيما نقرأ: "تكلّمْ لأنّ عبدَك سامع" (1 صموئيل 3: 10)، و"هأنذا" (إشعياء 6: 8).

بعد قرنَين من القدّيس تيخون، عُقِدَ مؤتمر في موسكو في العام 1976 بين الأرثوذكس والأنجليكان، وفيه جرى التعبير عن الموقف الحقيقيّ من الكتاب المقدَّس بعباراتٍ مختلفةٍ لكنَّها لا تقلُّ صوابًا عما ذكرناه. تشكِّل هذه الوثيقة المشتركة، الموقَّعة من ممثِّلي التقليدَين كليهما، خلاصةً ممتازةً للرؤية الأرثوذكسيَّة: "تولّف الأسفار المقدَّسة وحدةً متماسكة. وهي، في آنٍ، موحىً بها إلهيًّا ومُعبَّرٌ عنها إنسانيًّا. إنَّها تقدِّم شهادةً موثوقةً على إعلان الله عن ذاته في الخليقة، وفي تجسُّد الكلمة، وفي مُجمَل تاريخ الخلاص، وهي بذلك تُعبِّر عن كلمة الله بلُغةٍ بشريَّة. نحن نعرف الكتاب المقدَّس ونتلقَّاه ونُفسِّره من خلال الكنيسة وفي الكنيسة. وموقفنا من الكتاب المقدَّس هو موقف طاعة".

وبالجمع بين كلمات القدِّيس تيخون وبيان موسكو، يمكن تمييز أربع سماتٍ رئيسةٍ تُشكِّل "الفِكر الكتابيّ" الأرثوذكسيّ. أوّلًا، إنَّ قراءتنا للكتاب المقدَّس هي قراءةٌ **مُطيعة**. ثانيًا هي قراءةٌ **كنسيّة**، في اتّحادٍ مع الكنيسة. ثالثًا، هي قراءةٌ **متمركزةٌ حول المسيح**، ورابعًا، هي قراءةٌ **شخصيَّة**.

قراءة الكتاب المقدَّس بطاعةٍ

بادئ ذي بدءٍ، نحن ننظر إلى الكتاب المقدَّس على أنَّه موحىً به من الله، ونقترب منه بروح الطاعة. وقد شدَّد كلٌّ من القدِّيس تيخون ومؤتمر موسكو عام 1976 على الوحي الإلهيِّ للكتاب المقدَّس. فقد كتب القدِّيس تيخون أنَّ الكِتاب المقدَّس هو "رسالة" من "ملك السماء"، و"المسيح نفسه هو مَن يُخاطبك". أمّا المؤتمر فأكّد أنَّ الكتاب المقدَّس هو "شهادة" الله "الموثوقة" عن ذاته، يعبّر فيها عن "كلمة الله بلُغة بشريّة". واستجابتنا لهذه الكلمة الإلهيَّة يجب أن تكون بحقٍّ استقبالًا مطيعًا. وخلال قراءتنا، ننتظر الروح القدس.

بما أنَّ الكتاب المقدَّس موحىً به من الله، فإنَّه يتمتَّع بوحدةٍ جوهريَّة واتِّساقٍ تامٍّ، لأنَّ الروح عينه هو المتكلِّم في كلِّ صفحةٍ من صفحاته. نحن لا نشير إليه بصيغة الجمع "الكتب (ta biblia)"، بل نُسمِّيه "الإنجيل" أو "الكتاب"، بصيغة المفرد. إنَّه كتابٌ واحد، كتابٌ مقدَّسٌ واحد، يحمل رسالةً واحدةً عبر سرديَّةٍ مركَّبةٍ لكن واحدة، من سفر التكوين إلى سفر الرؤيا.

في الوقت عينه، الكتاب المقدَّس معبَّرٌ عنه أيضًا بطريقةٍ بشريَّة. إنَّه مكتبةٌ كاملةٌ من كتاباتٍ متمايزة، كُتبت في أزمنةٍ متنوِّعة، على أيدي أشخاصٍ مختلفين، وفي ظروفٍ متنوّعةٍ بشكلٍ كبير. نجِدُ الله يتكلّم هنا "بأنواعٍ وطرقٍ كثيرة" (عبرانيّين 1: 1). وكلُّ عملٍ في الكتاب المقدَّس يعكس نظرةَ العصر الذي كُتِبَ فيه، ووجهة نظر كاتبه الخاصَّة. فالله لا يُلغي شخصيَّتنا المخلوقة بل يعزّزها. تتعاون النعمة الإلهيَّة مع الحرِّيَّة البشريَّة: فنحن "عاملون مع الله" (1 كورنثوس 3: 9). وكما ورد في الرسالة إلى ذيوغنيتوس من القرن الثاني: "الله يُقنع، ولا يُجبر؛ لأنَّ العنف غريبٌ عن الطبيعة الإلهيَّة". وهذا ينطبق تمامًا على كتابة الأسفار الموحى بها: لم يكن مؤلّف كلِّ سفرٍ مجرَّد أداةٍ غير فاعلة، أو مزمارٍ يعزف عليه الروح القدُس، أو آلةِ تسجيلٍ تُسجِّلُ رسالة،

بل أسهم كلُّ كاتبٍ بمواهبه البشريَّة الخاصَّة. فإلى جانب البُعد الإلهيِّ، ثمّة عنصرٌ بشريٌّ في الكتاب المقدَّس، وعلينا أن نُقدِّر كلَيهما.

على سبيل المثال، لكلٍّ من الإنجيليّين الأربعة وجهة نظره الخاصَّة. متَّى هو الأكثر "كنسيَّةً" والأكثر يهوديَّة بينهم، إذ يُظهر اهتمامًا خاصًّا بالعلاقة بين الإنجيل والشريعة اليهوديَّة، ويرى في المسيحيَّة "الشريعة الجديدة". أمّا مرقس، فيكتب بلُغةٍ يونانيَّةٍ أقلَّ فصاحة وأقرب إلى لغة الحياة اليوميَّة، ويُضمِّن روايته تفاصيل حيَّةً لا نجدُها في الأناجيل الأخرى. يُبرز لوقا شموليَّة محبَّة المسيح ورحمته التي تحتضن اليهود والأمم على حدٍّ سواء. أمّا الإنجيل الرابع، فيُعبِّر عن مقاربةٍ داخليَّةٍ أكثر عُمقًا وميستيكيّة، وقد وصفه القدِّيس إكليمنضوس الإسكندريُّ بحقٍّ بأنَّه "إنجيلٌ روحيٌّ". فلنستكشف هذا التنوُّع المُحيي في الكتاب المقدَّس، ولنفرح به إلى أقصى حدّ.

بما أنَّ الكتاب المقدَّس هو كلام الله المعبَّر عنه بلُغةٍ بشريَّة، فإنَّ هناك مجالًا للبحث النقديّ الصادق والدقيق عند دراسته. فعقلُنا المفكِّرُ هو عطيَّةٌ من الله، ولا ينبغي لنا أن نخاف من استخدامه إلى أقصى حدٍّ عند قراءة الكتاب المقدَّس. يهمل المسيحيّون الأرثوذكس نتائج الأبحاث العلميَّة المستقلَّة حول أصل الكتاب المقدَّس وتواريخه ومؤلّفي أسفاره، وهو أمرٌ مضرٌّ لنا، علمًا بأنّنا سنحرص دائمًا على اختبار هذه النتائج في ضوء التقليد المقدّس.

لكنْ، إلى جانب هذا العنصر البشريِّ، يجب علينا دائمًا أن نرى الجانب الإلهيّ. فهذه النصوص ليست مجرَّد أعمالٍ لمؤلِّفين منفردين، وما نسمعه في الكتاب المقدَّس ليس مجرَّد كلماتٍ بشريَّةٍ تتفاوت في المهارة والبصيرة، بل هو كلمة الله غير المخلوق نفسه -كلمة الآب "المنبعث من الصمت"، على حدِّ تعبير القدِّيس إغناطيوس الأنطاكيّ- كلمة الخلاص الأزليّ. وهكذا، فإنّنا لا نقترب من الكتاب المقدَّس بدافع الفضول أو للحصول على معلوماتٍ تاريخيَّة، بل نقترب بسؤالٍ محدَّد هو: **"كيف أخلُص؟"**.

القبول المُطيع لكلمة الله يعني قبل كلِّ شيءٍ هذين الأمرَين: **حسُّ الدهَش**، وروح **الإصغاء**.

(1) إنَّ **الدهَش** ينطفئ بسهولة. ألا نشعر في كثيرٍ من الأحيان، فيما نقرأ الكتاب المقدَّس، أنَّه أصبح مألوفًا أكثر من اللَّازم، بل وحتَّى مُملًّا؟ ألمْ نفقد التيقُّظ وحسَّ الترقُّب اللَّذين كنّا نُظهِرهما في أثناء القراءة؟ إلى أيِّ مدىً يُغيّرنا ما نقرأه؟ إنَّنا بحاجةٍ دائمةٍ إلى تنقية أبواب إدراكنا، والنظر بأعيُنٍ جديدةٍ مُفعَمةٍ بالرهبة والدهَش إلى الأعجوبة التي أمامنا – الأعجوبة الحاضرة دائمًا، التي هي كلمة الله الإلهيّة، كلمة الخلاص المعبَّر عنها بلُغةٍ بشريَّة. وكما قال أفلاطون: "بداية الحقيقة هي أن تندهش من الأشياء".

منذ بضع سنوات، رأيتُ حلمًا لا أزال أتذكّره بوضوح. رأيتُ أنّني في البيت الذي عشتُ فيه ثلاث سنواتٍ من طفولتي في مدرسةٍ داخليَّة. أخذني صديقٌ أوَّلًا عبر الغرف المألوفة لديَّ من سنوات طفولتي التي أتذكّرها. ثمّ، في الحلم، دخلنا غرفًا أخرى لم أكن قد رأيتُها من قبل - كانت واسعةً وأنيقةً ويغمرها النور. وأخيرًا، وصلنا إلى كنيسةٍ صغيرةٍ مُظلمةٍ تتلألأ فيها الفسيفساء الذهبيَّة تحت ضوء الشُّموع. قلتُ لصاحبي: "يا للعجب، لقد عشتُ هنا طويلًا، ومع ذلك، لم أكن أعلم بوجود هذه الغرف كلِّها"، فأجابني: "هكذا هي الحال دائمًا". ثمّ استيقظتُ، وإذا به حلم.

أفلا ينبغي لنا أن نُبدي في حضْرة الكتاب المقدَّس دهشًا مماثلًا، والشعور عينه بالفرح والاكتشاف الذي اختبرتُه أنا في حلمي؟ إنَّ في الكتاب المقدَّس غرفًا كثيرةً لم ندخلها بعد، وما زال هناك الكثير لنكتشفه.

(2) وإذا كانت الطاعة تعني الدهَش، فهي تعني أيضًا **الإصغاء**. وهذا بالفعل هو المعنى الحرفيُّ للفعل "يُطيع" في اليونانيَّة واللاتينيَّة - يصغي. لكنَّ المشكلة هي أنَّ معظمنا يُجيد الكلام أكثر مما يُجيد الإصغاء. لقد لخَّصَت إحدى حلقات برنامج "الغونز" (الأغبياء)، الذي كنتُ أتابعه بشغفٍ أيَّام الدراسة، هذه المُعضلة بطرافة: يرنُّ الهاتف، فيردُّ أحد الشخصيَّات ويقول: "مرحبًا، مرحبًا، مرحبًا!". ترتفع نبرة صوته وهو يقول: "مَن المتكلِّم؟ لا أسمعكَ. مَن المتكلِّم؟"، فيردُّ صوتٌ من الطرف الآخر من المكالمة: "أنتَ هو المتكلِّم"، فيقول: "آه، كنتُ أقول لنفسي إنَّ الصوت مألوف". ثم يُغلق السمَّاعة.

من المتطلَّبات الأساسيَّة لاكتساب "فكرٍ كتابيّ" هو أن نتوقَّف عن الكلام ونبدأ بالإصغاء. عندما ندخل كنيسةً أرثوذكسيَّة مزيَّنةً بالطريقة التقليديَّة، ونرفع أنظارنا نحو الهيكل، نرى في الحَنيّة أيقونة والدة الإله رافعةً يدَيها نحو السماء - وهي الوضعيّة الكتابيَّة القديمة للصلاة التي لا يزال كثيرون يستخدمونها حتَّى اليوم.

هكذا ينبغي أن يكون موقفُنا من الكتاب المقدَّس أيضًا - موقف انفتاحٍ واقتبالٍ مُنتبِه، وأيدينا ممدودة نحو السماء على نحوٍ غير منظور.

وهكذا، حين نقرأ الكتاب المقدَّس، علينا أن نقتدي بالقدِّيسة مريم العذراء، فهي المثال الأسمى لمَن يُصغي. عند البشارة، حين أصغت إلى الملاك، أجابت بِطاعةٍ: "ليكُن لي كقولكَ" (لوقا 1: 38). لو لم تُصْغِ أوّلًا إلى كلام الله وتقبَلْه روحيًّا في قلبها، لما كانت حملَت كلمة الله جسديًّا في رحمها. وهذا الإصغاء المتقبِّل ظلَّ سلوكَها طول الرواية الإنجيليَّة. فعند ميلاد المسيح، بعد سجود الرُّعاة، كانت مريم "تحفظ جميع هذا الكلام متفكِّرةً به في قلبها" (لوقا 2: 19). وبعد زيارة أورشليم حين كان يسوع في الثانية عشرة من عمره، "كانت أمُّه تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها" (لوقا 2: 51). تتجلَّى الأهمّيّة الجوهريَّة للإصغاء أيضًا في آخر الكلمات المنسوبة إلى والدة الإله في الكتاب المقدَّس، في عرس قانا الجليل، حين قالت للخدَّام - ولكلِّ واحدٍ منَّا: "مهما قالَ لكم فافعلوه" (يوحنّا 2: 5).

في هذا كلِّه، تكون العذراء مرآةً وأيقونةً حيَّةً للمسيحيِّ الكتابيّ. فعند إصغائنا إلى كلام الله، نحن مدعوُّون لأن نكون مثلها: متأمّلين، وحافظين هذه الأمور في قلوبنا، وفاعلين كلَّ ما يأمرنا به. علينا أن نُصغي بِطاعةٍ بينما يتكلَّم الله.

فهْمُ الكتاب المقدَّس من خلال الكنيسة

أكّد مؤتمر موسكو: "نحن نعرف الكتاب المقدَّس، ونتلقّاه، ونُفسّره من خلال الكنيسة وفي الكنيسة". مقاربتنا للكتاب المقدَّس ليست فقط مُطيعة، بل أيضًا كنسيّة. كلمات الكتاب المقدَّس هي موجَّهةٌ إلينا شخصيًّا، وفي الوقت عينه موجَّهةٌ إلينا كأعضاء في جماعة. لا ينبغي فصْلُ الكتاب والكنيسة عن بعضهما.

تتجلَّى علاقة التبادل (interdependence) بين الكنيسة والكتاب المقدَّس في جانبَين على الأقلّ:

أوّلًا، نحن **نتلقّى** الكتاب المقدَّس من خلال الكنيسة وفيها. فالكنيسة هي التي تُخبرنا أيّ الكتب هي أسفارٌ مقدَّسة. في القرون الثلاثة الأولى من تاريخ المسيحيَّة، كان لا بدَّ من عمليّةٍ طويلةٍ من التمحيص والاختبار لتمييز ما هو "قانونيٌّ" بحقٍّ -أي ما يشهد بشهادةٍ موثوقةٍ لشخصِ المسيح ورسالته- عن"المنحول" الّذي قد

يكون مفيدًا للتعليم، لكنَّه لا يُعدُّ مصدرًا معياريًّا للعقيدة. وهكذا، فإنَّ الكنيسة هي التي حدَّدت أيّ الكتب تُشكِّل قانون العهد الجديد. لا يُعَدُّ السِّفر جزءًا من الكتاب المقدَّس بسبب نظريَّةٍ معيَّنةٍ حول تاريخ تأليفه أو كاتبه، بل لأنَّ الكنيسة تتعامل معه على أنَّه قانونيّ. فلو افترضنا مثلًا أنَّه تمَّ إثبات أنَّ الإنجيل الرابع لم يُكتَب فعليًّا على يد القدِّيس يوحنَّا الحبيب -برأيي، هناك في الواقع أسبابٌ قويَّةٌ للاستمرار في قبول نسبته إليه- فإنّ ذلك لن يُغيّر من حقيقة أنَّنا نعتبر الإنجيل الرابع سفرًا مقدَّسًا. لماذا؟ لأنّ الإنجيل الرابع، أيًّا يكُن مؤلِّفه، مقبولٌ من الكنيسة وفي الكنيسة.

ثانيًا، نحن **نفسِّر** الكتاب المقدَّس من خلال الكنيسة وفيها. فإذا كانت الكنيسة هي التي تُخبرنا أيّ الكتب هي أسفار مقدَّسة، فهي أيضًا التي تُرشدنا إلى كيفيَّة فهْم هذه الأسفار. حين صادفَ فيلبُّس الشمَّاس الرجل الحبشيَّ وهو يقرأ العهد القديم في مركبته، سأله: "ألعلّكَ تفهم ما أنتَ تقرأ؟"، فأجاب الحبشيّ: "كيف يمكنني إنْ لم يُرشدني أحدٌ؟" (أعمال الرسل 8: 30-31).

إنَّ الصعوبة التي واجهها الحبشيُّ هي أيضًا صعوبتنا. فكلمات الكتاب المقدَّس ليست دائمًا واضحةً بذاتها. يتمتَّع الكتاب المقدَّس ببساطةٍ رائعةٍ في جوهره، لكنْ، حين يُدرَسُ بتفصيلٍ، يتبيَّن أنَّه صعب. نعم، يتكلّم الله مباشرةً إلى قلبِ كلِّ واحدٍ منَّا في أثناء قراءتنا للكتاب المقدَّس -كما يقول القدِّيس تيخون، قراءتنا هي حوارٌ شخصيٌّ بين كلِّ واحدٍ منَّا وبين المسيح نفسه- لكنّنا أيضًا بحاجةٍ إلى إرشاد. ومرشدنا هو الكنيسة. نستفيد من فهمنا الشخصيَّ استفادةً تامّة، مُستنيرين بالروح القدس؛ ونستفيد من الشروحات الكتابيَّة ومن نتائج البحث العلميِّ الحديث؛ لكنّنا نُخضِع الآراء الفرديَّة، سواءٌ أكانت آراءنا أم آراء العلماء، لحُكم الكنيسة.

نحن نقرأ الكتاب المقدَّس على نحوٍ شخصيٍّ، لكنْ لا كأفرادٍ منعزلين. لا نقول "أنا"، بل نقول "نحن". نقرأ كأعضاء في عائلة، عائلة الكنيسة الأرثوذكسيَّة الجامعة. نقرأ في شركةٍ مع سائر أعضاء جسد المسيح في أنحاء العالم كلِّه، وفي الأجيال كلِّها. يتجلَّى هذا النَّهج الجماعيَّ أو الجامع تجاه الكتاب المقدَّس في أحد الأسئلة التي تُطرَح على المتحوِّل (convert) خلال خدمة الاستقبال المستخدَمة في الكنيسة الروسيَّة:

"هل تُقرُّ بأنَّ الكتاب المقدَّس يجب أن يُقبَل ويُفسَّر وفقًا للإيمان الذي سلَّمه الآباء القدِّيسون، والذي تمسَّكت به الكنيسة الأرثوذكسية المقدَّسة، أمُّنا، على الدوام ولا تزال تتمسَّك به؟". فالمعيار الحاسم لفهمنا لمعنى الكتاب المقدَّس **هو فكرُ الكنيسة.**

من أين نبدأ لاكتشاف "فكر الكنيسة"؟ الخطوة الأولى هي أن نلاحظ كيف يُستخدَم الكتاب المقدَّس في العبادة. كيف يجري اختيار القراءات الكتابيَّة في الأعياد المختلفة؟ والخطوة الثانية هي الرجوع إلى كتابات آباء الكنيسة، لا سيَّما القدّيس يوحنا الذهبيّ الفم. كيف يُحلِّل هؤلاء الآباء النصَّ الكتابيَّ ويُطبِّقونه؟ فالقراءة الكنسيَّة للكتاب المقدَّس هي **بهذه الطريقة ليتورجيَّة وآبائيَّة** في آنٍ.

ولتوضيح معنى تفسير الكتاب المقدَّس بطريقةٍ ليتورجيَّة، فلنتأمَّلْ في قراءات العهد القديم التي تُقرأ خلال صلاة الغروب في عيد البشارة (25 آذار)، وفي غروب يوم السبت العظيم، وهو الجزء الأوَّل من السهرانيَّة الفصحيَّة القديمة. في عيد البشارة، نجِدُ خمس قراءات:

1. تكوين 28: 10–17: حلم يعقوب بالسُلَّم المنصوبة من الأرض إلى السماء.
2. حزقيال 44: 1-3: رؤيا النبيِّ لهيكل أورشليم، والباب المغلق الذي لا يَعبُر منه إلَّا الرئيس.
3. أمثال 9: 1–11: أحد النصوص الحكميّة العظيمة في العهد القديم، يبدأ بـ "الحِكمة بنَتْ بيتها".
4. خروج 3: 1–8: موسى عند العلّيقة المشتعلة.
5. أمثال 8: 22–30: نصٌّ حكميٌّ آخر، يصِفُ مكانة الحكمة في العناية الإلهيَّة الأزليَّة: "الربُّ قناني أوّل طريقه، من قبل أعماله، منذ القِدم".

في هذه المقاطع من العهد القديم، نجِدُ سلسلةً من الصور القويَّة التي تُشير إلى دور والدة الإلَه في خطَّة الله المتكشِّفة للخلاص. هي سُلَّم يعقوب، إذ من خلالها ينزل الله ويدخل عالمنا، متَّخذًا الجسد الذي تمنحه إيّاه. هي أمٌّ ودائمة البتوليَّة؛ ولد منها المسيح، ومع ذلك بقيت عفيفة، وباب بتوليّتها مختوم. هي التي تُقدّم الطبيعة البشريَّة أو "البيت" الذي يتَّخذه المسيح، "حكمة الله" (1 كورنثوس 1: 24)، مَسكنًا له؛ ويمكن اعتبارها هي نفسها حكمة الله. هي العلَّيقة المشتعلة التي احتوت في رحمها النار غير المخلوقة للألوهة، ومع ذلك لم تحترق. ومنذ الأزل، "قبل أن تكون الأرض"، سبقَ واختارها الله لتكون أمَّه.

عند قراءة هذه النصوص في سياقها الأصليِّ ضمن العهد القديم، قد لا ندرك فورًا أنَّها تُنبئ بتجسُّد المخلِّص من العذراء. لكنْ من خلال التأمُّل في كيفيَّة استخدام الكنيسة لهذه النصوص في قراءاتها اللِّيتورجيَّة، نستطيع أن نكتشف طبقاتٍ متعدِّدةً من المعاني التي لا تكون واضحةً للوهلة الأولى.

يحدث الأمر عينه عندما نتأمَّل في كيفيَّة استخدام الكتاب المقدَّس في يوم السبت العظيم. ففي هذا اليوم، يوجد ما لا يقلُّ عن خمس عشرة قراءةً من العهد القديم. ومن المؤسِف أنَّ معظم هذه القراءات تُهمَل في كثيرٍ من رعايانا، فيُحرَم شعب الله من غذائه الكتابيِّ الضروريّ. إنَّ هذه السلسلة الطويلة من القراءات تكشف لنا المعنى الأعمق لـ"عبور" المسيح من الموت إلى القيامة. أولى هذه القراءات هي رواية الخلق (تكوين 1: 1–13): قيامة المسيح هي خلقٌ جديد (2 كورنثوس 5: 17؛ رؤيا 21: 5)، وبداية عصرٍ جديد هو الدَّهر الآتي. أمَّا القراءة الثالثة، فتصِفُ الطقسَ اليهوديَّ لوجبة الفصح: فالمسيح المصلوب والقائم هو الفصح الجديد، الحمل الفصحيُّ الذي وحده يمكن أن يرفع خطيئة العالم (1 كورنثوس 5: 7؛ يوحنا 1: 29). القراءة الرابعة هي سِفر يونان كاملًا: الأيَّام الثلاثة التي قضاها النبيُّ في جوف الحوت تُنبئ بقيامة المسيح بعد ثلاثة أيَّام في القبر (متَّى 12: 40). والقراءة السادسة تروي قصَّة عبور بني إسرائيل للبحر الأحمر (خروج 13: 20 – 15: 19): المسيح يقودنا من عبوديَّة مصر (الخطيئة)، عبر البحر الأحمر (المعموديّة)، إلى أرض الميعاد (الكنيسة). أمّا القراءة الأخيرة، فهي قصَّة الفتية الثلاثة القدِّيسين في أتّون النار (دانيال 3)، وهي مرَّة أخرى "رمز" أو نبوءةٌ لقيامة المسيح من القبر.

كيف يمكننا أن نُنمِّي هذا النهج الكنسيَّ والليتورجيَّ في قراءة الكتاب المقدَّس ضمن حلقات دراسة الكتاب في رعايانا؟ يمكن تكليف أحد الأعضاء بتتبُّع متَى يُستخدم مقطعٌ معيَّنٌ في عيدٍ أو تذكار قدِّيس، ويمكن لأفراد المجموعة عندها أن يناقشوا معًا سبب هذا الاختيار. ويمكن تكليف آخرين ضمن المجموعة بالبحث في كتابات آباء الكنيسة، معتمدين بشكل رئيسيٍّ على العِظات الكتابيَّة للقدِّيس يوحنَّا الذهبيِّ الفم، وهي متوفِّرة بالإنجليزيّة ضمن سلسلة "آباء نيقية وما بعد نيقية"، التي أعادت دار إيردمانز إصدارها. قد نشعر في البداية بخيبة أمل، لأنّ طريقة الآباء بالتفكير والحديث تختلف بشكلٍ صارخٍ عن أسلوبنا المعاصر. لكنْ، يوجد في نصوص الآباء ذهبٌ دفين، إذا ما امتلكنا المثابرة والبصيرة لاكتشافه.

المسيح، قلب الكتاب المقدَّس

المتطلَّب الثالث في قراءتنا للكتاب المقدَّس هو أن تكون قراءةً متمركزةً حول المسيح. فإذا اتَّفقنا مع مؤتمر موسكو عام 1976 على أنَّ "الأسفار المقدَّسة تُشكِّل وحدةً متماسكة"، فأين نجِدُ هذه الوحدة وهذا الاتِّساق؟ نجدهما في **شخص المسيح**. هو الخيط الموحِّد الذي يمتدُّ عبر الكتاب المقدَّس كلِّه، من أوَّل جملةٍ إلى آخر جملةٍ فيه. يسوع يلقانا في كلِّ صفحةٍ من الكتاب. كلُّ شيءٍ يترابطُ ويتماسك بسببه. "فيه يقوم (يتماسك) الكلّ" (كولوسي 1: 17).

لقد تبنَّى كثيرٌ من الباحثين الغربيِّين المعاصرين في دراستهم للكتاب المقدَّس منهجًا تحليليًّا، يفكِّكون فيه كلَّ سفرٍ إلى ما يُعتقد أنَّها مصادره الأصليَّة. فتتفكَّك الروابط، ويُختزل السِّفر إلى سلسلةٍ من الوحدات المتفرِّقة المعزولة. لكنْ في الآونة الأخيرة، ظهرَت ردَّة فعلٍ تجاه هذا النهج، وبدأ النقَّاد الكتابيُّون في الغرب يُولون اهتمامًا أكبر للطريقة التي جرى بها جمْعُ هذه الوحدات الأوليَّة وربطها ببعضها. وهذا أمرٌ يمكننا نحن الأرثوذكس أن نرحِّب به بكلِّ تأكيد. علينا أن نرى وحدة الكتاب المقدَّس إلى جانب تنوُّعه، ونرى نهايته الجامعة إلى جانب بداياته المتفرِّقة. تميل الأرثوذكسيَّة غالبًا إلى أسلوبٍ "تركيبيٍّ" في التفسير عوضًا عن الأسلوب التحليليّ، فترى الكتاب المقدَّس ككُلٍّ متكامل، والمسيح حاضرٌ فيه في كلِّ موضع، كرباطٍ للوحدة.

وهذا، كما رأينا، هو بالضبط الأثر الناجم عن قراءة الكتاب المقدَّس ضمن سياق العبادة الكنسيَّة. فكما تُظهر قراءات عيد البشارة ويوم السبت العظيم، في كلِّ موضعٍ من العهد القديم نجد علاماتٍ وإشاراتٍ تُشير إلى سرِّ المسيح وأمِّه مريم. وعندما نُفسِّر العهد القديم في ضوء العهد الجديد، ونُفسِّر الجديد في ضوء القديم -كما تشجِّعنا الكنيسة من خلال ترتيب قراءاتها- نكتشف كيف أنَّ الكتاب المقدَّس بأكمله يجد نقطة التقائه في شخص المخلِّص.

تُكثِر الأرثوذكسيّة من استخدام منهج التفسير "الرمزيّ"، حيث تُكتشف "رموز" المسيح وعلامات عمله ورموزه في مختلف مواضع العهد القديم. فمثلاً، يُعَدُّ ملكيصادق، كاهن ملك شاليم الذي قدَّم خبزًا وخمرًا لإبراهيم (تكوين 14: 18)، رمزًا للمسيح، ليس فقط في كتابات الآباء، بل أيضًا في العهد الجديد نفسه

(عبرانيِّين 5: 6؛ 7: 1–19). والصخرة التي تفجَّرت منها المياه في بريَّة سيناء (خروج 17: 6؛ عدد 30: 7–11)، هي أيضًا رمزٌ للمسيح (1 كورنثوس 10: 4). ويُفسّر هذا المنهج الرمزيُّ اختيار القراءات، ليس فقط في يوم السبت العظيم، بل أيضًا خلال النصف الثاني من الصوم الكبير. لماذا تهيمن شخصيَّة يوسف على قراءات سفر التكوين في الأسبوع السادس؟ ولماذا نقرأ من سفر أيّوب في أسبوع الآلام؟ لأنّ يوسف وأيّوب، اللذَين تألَّما بغير ذنب، يُنبِئان بآلام المسيح الخلاصيَّة على الصليب.

ويمكننا أن نكتشف العديد من الروابط الأخرى بين العهدَين القديم والجديد باستخدام فهرسٍ كتابيّ. غالبًا ما يكون الفهرسُ أفضلَ تفسير، أو نسخة من الكتاب المقدَّس مزوَّدة بإشاراتٍ مرجعيَّةٍ هامشيةٍ مختارة بعناية. فقط اربط بين النصوص وستجد كلَّ شيءٍ يترابط. وكما قال الأب ألكسندر شميمن: "المسيحيُّ هو مَن يرى المسيح أينما ينظر، ويفرح فيه". وهذا ينطبق بخاصّةٍ على المسيحيِّ الكتابيّ: أينما ينظر، في كلِّ صفحة، يجد المسيح حاضرًا في كلِّ مكان.

الكتاب المقدَّس كخطابٍ شخصيّ

بحسب القدِّيس مرقس الراهب ("مرقس الناسك"، القرن الخامس/السادس)، "مَن كان متواضعًا في أفكاره ومنهمكًا في العمل الروحيِّ، فإنَّه حين يقرأ الأسفار المقدَّسة، يطبّق كلَّ شيءٍ على نفسه، لا على قريبه". نحن مدعوُّون إلى البحث في أرجاء الكتاب المقدَّس عن تطبيقٍ شخصيّ. لا ينبغي أن يكون سؤالنا فقط: "ما معنى هذا؟"، بل: "ما معناه بالنسبة لي أنا؟". وكما يؤكِّد القدِّيس تيخون: "المسيح نفسه هو مَن يخاطبك". فالكتاب المقدَّس هو حوارٌ مباشرٌ وحميمٌ بين المخلِّص وبيني - يخاطبني المسيح، وقلبي يُجيب. هذا هو المعيار الرابع في قراءتنا للكتاب المقدَّس.

ينبغي لي أن أرى كلَّ قصص الكتاب المقدَّس كجزءٍ من قصَّتي الشخصيَّة. فسقطة آدم هي أيضًا وصفٌ لأمرٍ ما في تجربتي الخاصَّة. مَن هو آدم؟ اسمه يعني ببساطة "إنسان"، "بشريّ": أنا هو آدم. ولي يقول الله: "أين أنتَ؟" (تكوين 3: 9). كثيرًا ما نسأل: "أين الله؟"، لكنَّ السؤال الحقيقي هو ذاك الذي يوجِّهه الله إلى آدم الذي في داخل كلِّ واحدٍ منَّا: "أين أنت؟".

ومَن هو قايين، قاتل أخيه؟ إنَّه أنا. ومجابهة الله له: "أين هابيل أخوك؟" (تكوين 4: 9) موجَّهةٌ إلى قايين الذي في داخل كلِّ واحدٍ منَّا. فالطريق إلى الله يمرّ عبر محبَّة الآخرين، ولا توجد طريقٌ سواها. وحين أتنكَّر لأخي أو أختي، أُبدِّل صورة الله بعلامة قايين، وأُنكر إنسانيَّتي الجوهريّة.

يتجلَّى التطبيق الشخصيِّ عينه في خدم الصوم الكبير أيضًا، لا سيّما في القانون العظيم للقدِّيس أندراوس الكريتيّ. فنحن نقول: "أنا الرجل الذي وقع بين اللُّصوص" (انظر لوقا 10: 30)،

ونقول: "كنتُ ابنك الأصغر، وبدّدتُ الثروة التي منحتني إيّاها... وها أنا الآن جائعٌ ومحروم" (انظر لوقا 15: 11–14). كان آباء البريَّة في مصر يسألون: "مَن هم الخراف، ومَن هم الجداء؟" (انظر متى 25: 31–46)، فيجيبون: "الخراف معروفةٌ لدى الله، أمّا الجداء، فأنا".

ثمّة ثلاث خطواتٍ ينبغي اتِّباعها عند قراءة الكتاب المقدَّس:

أوّلًا، نتأمَّل في أنَّ ما لدينا في الكتاب المقدَّس هو **تاريخٌ مقدَّس**: تاريخ العالم منذ الخلق، تاريخ شعب الله المختار، تاريخ الله نفسه متجسّدًا في فلسطين، وتاريخ "عظائم الله" (أعمال 2: 11) بعد العنصرة. وينبغي ألَّا ننسى مطلقًا أنَّ ما نجده في الكتاب المقدَّس ليس أيديولوجيا، ولا نظريَّة فلسفيَّة، بل هو إيمانٌ تاريخيّ.

ثانيًا، نلاحظ **الخصوصيَّة** والتحديد اللّذين يتّسم بهما هذا التاريخ المقدَّس. في الكتاب المقدَّس، نجد الله يتدخَّل في أوقاتٍ محدَّدة، وفي أماكن معيَّنة، ويدخل في حوارٍ مع أفراد. نرى أمامنا دعواتٍ متميِّزة يوجِّهها الله لكلِّ شخصٍ على حدة: لإبراهيم، وموسى، وداود، ورفقة وراعوث، وإشعياء والأنبياء. نرى الله يتجسَّد مرّةً واحدةً فقط، في زاويةٍ معيَّنةٍ من الأرض، في لحظةٍ معيَّنة، ومن أمٍّ معيَّنة. ولا ينبغي أن تُعتبَر هذه الخصوصيَّة عثرةً، بل بركة. فمحبّة الله شاملةٌ في مداها، لكنَّها دائمًا شخصيَّةٌ في تعبيرها.

هذا الإحساس بخصوصيَّة الكتاب المقدَّس هو عنصرٌ جوهريٌّ في "الفِكر الكتابيّ" الأرثوذكسيّ. إذا كنَّا حقًّا نحبُّ الكتاب المقدَّس، فسنحبُّ الأنساب وتفاصيل التواريخ والجغرافيا. ومن أفضل الطرائق لإفعام دراسة الكتاب المقدَّس بالحياة هي القيام بحجٍّ إلى الأرض المقدَّسة: امشوا حيث مشى المسيح، انزلوا قرب البحر الميت، اصعدوا جبل التجربة، تأمَّلوا القفر، اشعروا بما شعرَ به المسيح خلال الأربعين يومًا التي قضاها

وحده في البرِّيَّة. اشربوا من البئر التي تحدّث قربها يسوع مع المرأة السامريَّة، اركبوا قاربًا في بحر الجليل، واطلبوا من البحَّارة إيقاف المحرِّك، وانظروا بصمتٍ عبر المياه. اذهبوا ليلًا إلى بستان الجثسمانيّة، اجلسوا في الظلمة تحت الزيتون العتيق، وانظروا عبر الوادي إلى أضواء المدينة. تذوّقوا إلى أقصى حدٍّ "الحضور" المميَّز للبيئة التاريخيَّة، واحملوا تلك الخبرة إلى قراءتكم اليوميَّة للكتاب المقدَّس.

ثمّ ننتقل إلى الخطوة الثالثة: بعد أن نُعيد عيش التاريخ الكتابيَّ بكلِّ خصوصيّته، نُسقِطه **مباشرةً على أنفسنا**. نقول لأنفسنا: "هذه ليست أماكن بعيدة، ولا أحداثًا من الماضي البعيد. إنها جزءٌ من لقائي الشخصيِّ مع الربِّ. القصص تشملني".

فالخيانة، على سبيل المثال، هي جزءٌ من القصّة الشخصيَّة لكلِّ واحدٍ منَّا. ألم نخُنِ الآخرين في وقتٍ ما من حياتنا؟ ألم نختبر ما يعني أن يُخوننا أحد؟ ألا تترك ذكريات تلك اللحظات نُدوبًا عميقةً مستمرَّةً في النفس؟ وعندما نقرأ قصَّة خيانة القدِّيس بطرس للمسيح، ثمّ استعادته بعد القيامة، نرى أنفسنا كمشاركين في القصّة. عندما نتخيَّل ما شعر به كلٌّ من بطرس والمسيح في اللَّحظة التي تلت الخيانة مباشرةً، فإنَّنا نجعل مشاعرهما مشاعرنا. أنا هو بطرس؛ وفي موقف الخيانة، هل يمكنني أن أكون المسيحَ أيضًا؟ عندما نرى كيف أنّ المخلِّص القائم أعادَ بطرس الساقط إلى الشركة، وذلك بمحبّةٍ خاليةٍ من العاطفيَّة، ونرى كيف أنَّ بطرس، من جهته، امتلك التواضع والشجاعة لقبول هذه الاستعادة، نتأمّل في لحظة المصالحة ونسأل أنفسنا: كم أنا شبيهٌ بالمسيح تجاه مَن خانَني؟ وبعد خياناتي الشخصيَّة للآخرين، هل أستطيع قبول غفران الآخرين؟ هل أستطيع أن أغفر لنفسي؟

خُذوا مثلًا آخر: "المرأة الخاطئة" التي سكبت قارورة الطيب على قدمَي المسيح (لوقا 7: 36–50)، والتي يقول بعضهم إنَّها القدِّيسة مريم المجدليَّة، مع أنَّ هذا ليس هو التفسير الأرثوذكسيَّ المعتاد. هل أستطيع أن أرى نفسي فيها؟ هل أشارك في سخائها، وفي عفويّتها واندفاعها المُحبّ؟ "غُفِرت لها خطاياها الكثيرة لأنّها أحبَّت كثيرًا". أم أنّني حريصٌ، وبخيلٌ، ومتردِّدٌ، ومُحجِمٌ، وغير راغبٍ البتّة في الالتزام الكامل بأيّ شيء، سواءٌ أكان خيرًا أم شرًّا؟ وكما يقول آباء البرّيّة: "إنَّ مَن خَطِئ، إنْ عرف ذلك وتاب، هو خيرٌ من الذي لم يخطأ ويحسب نفسه بارًّا".

إنّ هذا النهج الشخصيَّ في قراءة الكتاب المقدَّس يعني أنّنا لا نقرؤه ببساطةٍ كمراقبين مُحايدين وموضوعيِّين، ونمتصّ المعلومات، ونسجِّل الحقائق. فالكتاب المقدَّس ليس مجرَّد عملٍ أدبيٍّ أو مجموعة وثائق تاريخيَّة، مع أنه يمكن مقاربتُه على هذا المستوى بالطبع. هو، في جوهره، كتاب **مقدَّس**، موجَّه إلى **المؤمنين**، ليقرؤوه بإيمانٍ ومحبَّة. ولن نجني الثمار الحقيقيَّة من قراءة الأناجيل ما لم نكن واقعين في حبِّ المسيح. "القلب يُخاطب القلب". فأنا لا أدخل إلى حقيقة الكتاب المقدَّس الحيَّة إلّا حين يستجيب قلبي بمحبّةٍ لقلب الله.

عندما نقرأ الكتاب المقدَّس بهذه الطريقة -بطاعةٍ، كأعضاء في الكنيسة، ونرى المسيح في كلِّ موضع، ونرى كلَّ شيءٍ جزءًا من قصَّتنا الشخصية - سنشعر بشيءٍ من القوَّة والشفاء الكامنين في الكتاب المقدَّس. ومع ذلك، فإنَّنا في رحلتنا الكتابيَّة نبقى دائمًا في بدايتها فحسب. نحن كمَن يُبحر في قاربٍ صغيرٍ عبر محيطٍ لا حدود له. لكنْ، مهما كانت مدّة الرحلة، يمكننا أن نبدأها اليوم، في هذه الساعة، في هذه اللحظة بالذات.

عندما كان المغبوط أغسطينوس في ذروة أزمته الروحيَّة، وكان يصارع نفسه وحيدًا في الحديقة، سمع صوت طفلٍ ينادي: "خُذ واقرأ، خُذ واقرأ". فأخذ كتابه المقدَّس وقرأ، وما قرأه غيَّرَ حياته كلَّها. فلنفعلْ نحن أيضًا مثل ذلك: **"خُذوا واقرؤوا"**.

"سراجٌ لرجلي كلامُكَ ونورٌ لسبيلي" (مزمور 118 [119]: 105).

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitan Kallistos (Ware) of Diokleia (n.d.). “How to Read the Bible”, published online by the *Orthodox Church in America (OCA)*. Link.

من أجل نجاتنا من كلِّ ضيقٍ وغضبٍ وخطرٍ وشدَّة

حديثٌ سابع حول القدّاس الإلهيّ، الجزء الأوّل

المتروبوليت أثناسيوس (ليماسول)

نتابع دراسة نصّ القدّاس الإلهيّ. في المرّة الأخيرة، تحدّثنا عن هذا الابتهال من الطلبة السلاميّة الكبرى: "من أجل المسافرين برًّا وبحرًا وجوًّا، والمرضى والمتألّمين والأسرى...".

بعدها، يُعلن الشمّاس قائلًا: "من أجل نجاتنا من كلِّ ضيقٍ وغضبٍ وخطرٍ وشدَّة، إلى الربِّ نطلب". بمعنىً آخر، فلنسأل الربَّ أن يُنجِّيَنا من كلِّ حزنٍ وغضبٍ وخطر، ومن جميع الظروف الصعبة. هذه الطلبة التي هي من أواخر طلبات الطلبة السلاميّة الكبرى، تبدو وكأنّها تُلخِّص حاجاتنا بعباراتٍ عامَّة: نصلّي أن ينجِّيَنا الله من كلِّ شدَّةٍ أيًّا كانت. قد تتساءلون: ولكنْ، ألا تعود علينا الضيقات بمنفعةٍ روحيَّة؟ نعم، إنَّها بالطبع نافعةٌ للنَّفس. ما مِن إنسانٍ في هذا العالم لم يختبر الأحزان في حياته. وكما يقول الكتاب المقدّس: "كلُّ الرأسِ مريضٌ وكلُّ القلبِ سقيمٌ" (إشعيا 1: 5). تكمن المسألة في كيفيَّة تعامُلنا مع الأحزان التي تحلُّ بنا. إذا احتملتُموها بصبرٍ وتجلُّدٍ، وسعيتُم للانتفاع منها روحيًّا، فحتّى ولو كنتُم أنتم الملومين على مِحَنِكُم، وأنتم مَن تسبَّبتُم بها لأنفسكم، ستصبح حدثًا مباركًا في حياتكم. أمَّا إذا ما واجهتُم الأحزان على نحوٍ خاطئ: بالتذمُّر والعصبيَّة والتمرُّد على الله والقريب والآخرين، فستقعون فريسةً لليأس، وعندها، بالتأكيد، لن تجنوا أيَّة منفعة.

إليكم هذا المثال: يرتكب رجلٌ جريمةً، فتقبض عليه الشرطة ويُزَجُّ به في السجن. إذا اعترفَ هذا الرجل بأنَّه مسجونٌ بسبب جرمه، إذا أقرَّ بأنَّه الملوم على وجوده خلف القضبان قائلًا: "لقد نلتُ ما أستحقّ"، إذا تواضعَ وصبرَ واحتملَ قسوة السجن بالصلاة وتسبيح الله قائلًا: "المجد لك يا الله!"، مُدركًا أنّ معاناته تُطهِّره وتُقدِّسه وتجعله ينقطع عن الكثير من الخطايا، فإنَّ حزن سجنه سيعود عليه بمنفعةٍ روحيَّة.

علينا أن نعلم أنَّنا لن نتخلَّص من الأحزان بجهودنا الذاتيَّة مهما حاولنا جاهدين ومهما فعلنا، فهذه هي طبيعة حياتنا.

فلنتخيَّل المشهد المثاليَّ التالي: لنفترضْ أنَّ رجلاً استطاع أن يرتِّب حياته بحيث لا يواجه ولا حتّى حزنًا واحدًا طول عمره. كلُّ شيءٍ في حياته رائعٌ ومبهج، وعلى أفضل ما يكون. ماذا سيحدث لهذا الرجل؟ في اللحظة الأخيرة من حياته، سيظلُّ مضطرًّا لمواجهة نوعٍ من الحزن - إنَّه حزن الموت.

وعندما نتحدّث عن الحزن (**θλίψις**)، نعني أمرًا جدّيًّا حقًّا، لا شيئًا هزليًّا. لا نعني تلك المُنغِّصات الصغيرة التي نمرُّ بها بين الحين والآخر، بل الحزن بمعناه الأعمق والأصدق. إنَّ المعنى الأصليَّ للفِعل "**θλίβω**" (يحزن) باليونانيّة القديمة هو: "يضغط، يدفع، يعجن". كيف يتمّ إنتاج الزَّيت؟ تُعصَرُ حبَّات الزيتون وتُكبَسُ وتُوضَعُ تحت الضغط حتّى تصبح عجينة، فيَسيل منها الزَّيت. للحصول على الزَّيت، لا بدَّ من أن يُعصَر الزَّيتون جيِّدًا، ويُضغَط، ويُعجَن.

أفهِمتُم الآن أيَّ معنىً تحمله كلمة "حزن (**θλίψις**)"؟ إنّ هذه الكلمة اليونانيَّة البديعة تنقل المعنى كاملًا: فالحزن ليس مجرَّد أسىً أو كآبة؛ الحزن يُضيِّق على الإنسان من كلِّ جانب، ويضغط عليه بقوَّةٍ هائلةٍ محاولًا أن يسحقه سحقًا تامًّا.

يمرُّ الجميع بحالةٍ مشابهة، حتَّى القدّيسون العِظام. لقد اختبر الربُّ يسوع المسيح أيضًا هذه الحالة في ساعة تجربته، إذ سمح لطبيعته البشريَّة أن تحتمل حزنًا عظيمًا لم يحتمله أحدٌ قبله قطّ. لم يعرفْ أيُّ إنسانٍ في العالم، ولن يعرف، حزنًا أعظم من الحزن الذي اختبره المسيح. لقد حزِنَ إلى درجةٍ باتَ فيها يتعرَّق قطراتٍ من الدم. وبعد المسيح، احتملت والدة الإله الكلّيّة القداسة الحزنَ الأعظم.

ومع ذلك، لم يخلقنا الربُّ لكي نغتمَّ - إنَّنا لم نُخلَق للحزن مُطلقًا. فبعدَ أن خلقَ الله الجدَّ الأوّل آدم، وضَعَهُ في فردوسِ عدن، في جنّةٍ جميلةٍ مملوءةٍ بالفرح والسرور. ومع أنّنا نعلم أنّ الأحزان تعود على الإنسان بالنَّفع، وأنَّه من المستحيل تجنُّبها، فإنّ الحزن يظلُّ بالنسبة لنا ظاهرةً مكروهةً وغير مرغوبٍ فيها. عندما يحلُّ بنا، نشعر وكأنّنا وُضِعنا على جمرٍ مشتعل، مثل السمكة عندما تُشوى على الجمر، وتُقلَّبُ من جانبٍ إلى آخر حتّى تنضج تمامًا وتصبح لذيذة. لو كان بإمكان السمكة أن تتكلّم، لسمعناها تصرخ: "أنقِذوني! ارفعوني من فوق هذا الجمر حالًا!". غير أنّنا لا نسمعها تقول شيئًا، فنُواصِلُ تقليبها، لأنّها إذا بقيَتْ نيئة، لن

تكون صالحةً للأكل وسنضطرُّ إلى رميها. هكذا نحن خلال المِحَن التي نمرُّ بها، نكون مثل هذه السمكة. فالأحزان بالنسبة لنا هي كالجمر بالنسبة إلى السمكة؛ وبفضلِها نصبح أشخاصًا ناضجين روحيًّا.

إلى جانب تنقية النفس من الأهواء والخطايا وكلِّ ما يُثقلها، تجعلنا الأحزان عمومًا أفضل حالًا ممّا كنَّا عليه قبلًا: نصبح أكثر تواضعًا، وأكثر تماسكًا داخليًّا. إنّ الذي يحزن ويتألَّم ويحتمل التجارب لا يشعر بالرغبة في إدانة الآخرين أو اتِّهامهم أو مخاطبتهم بفظاظة، إذ يكون غارقًا في مشكلاته ومعاناته وآلامه الخاصّة. وبفضل الأحزان، نصبح أكثر رأفةً؛ عندما نسمع أو نرى أنّ آخرين يتألَّمون أو يعانون المرض أو يواجهون صعوباتٍ معيَّنة، تتحرّك نفوسنا فورًا للتعاطف معهم والرأفة بهم، بما أنَّنا نحن أنفسنا قد اختبرنا الآلام والأحزان. نشارك في آلام شخصٍ آخر ومعاناته، وهذا يدفعنا إلى الصلاة. وقد تكون صلاتنا مُقتضبةً جدًّا -مجرَّد "يا ربُّ ارحم"- لكنَّنا نصبُّ فيها كلّ محبّتنا واهتمامنا بمَن نراهُم يتألَّمون.

وهل يستطيع إنسانٌ لم يواجه في حياته ألمًا أو معاناة، ولم يُضطرَّ إلى تحمُّل أصغر حزن، أن يتفهّم [آلام] إنسانٍ آخر حقًّا؟ يقول المثَل: "الشبعان لا يتفهَّم الجوعان"؛ وهذا صحيحٌ بالفعل. إذا لم تعرفوا شعور الجوع، فكيف ستشعرون بالجائع؟ قد تقولون له في أقصى درجات التجاهل: "تحمَّلْ، فالجوع مفيدٌ للحفاظ على الرشاقة". ولستُ أمزح، لأنّنا نسمع أحيانًا مثل هذا الكلام.

إنَّ هذه الطلبة التي نتأمّلها لا تعني مجرَّد تجنُّب بعض الأحزان، بل أعتقد أنّ ما تقصده الكنيسة هنا هو تحديدًا تلك الأحزان القادرة على تسديد ضربةٍ ساحقةٍ وقاتلةٍ لنا. لقد علَّمَنا المسيحُ نفسُه أن نصلِّي طالبين النجاة من مثل هذه الأحزان: "ولا تُدخلنا في تجربة، لكن نجِّنا من الشرّير" (متّى 6: 13، لوقا 11: 4). ومع أنَّنا نعلم أنَّ على المسيحيّ أن يخوض معركةً ضدّ الشرّير، يجب أن نطلب من الله أن ينجِّيَنا من تلك التجارب التي تفوق طاقتنا.

قد تتساءلون: هل يمكن حقًّا أن يسمح المسيح بأن نُجرَّب فوق طاقتنا؟ الجواب: لا، كما يقول الرسول بولس: "الله أمينٌ، الذي لا يدعكم تُجرَّبون فوق ما تستطيعون" (1 كورنثوس 10: 13). لذلك، أيّة تجربةٍ تواجهنا لن تفوق قدرتنا، لأنّه لو كانت كذلك لما سمح الله لها بأن تحلَّ بنا. غالبًا ما لا نعرف المدى الذي يمكن لقوّتنا أن تبلغه، ولهذا لا نستعملها بالكامل، بل نتركها أحيانًا خاملةً تمامًا. يمتلك الإنسان طاقات

هائلة. فليتذكّرْ كلُّ واحدٍ منكم الأحداث المؤلمة التي اضطرّ إلى مواجهتها في حياته. ستكتشفون أمرًا مدهِشًا: لو علمنا مُسبقًا أننا سنمرُّ بهذا الحزن أو ذاك، لما تجرّأنا على تصديق أنّنا قادرون على احتماله. لكن عندما أصابتنا تلك الشدّة، ومع أنّنا صُدِمنا وذُهِلنا واهتزّ كياننا، تمكنّا مع ذلك من النجاة منها. وهذا دليلٌ على أنّنا لا نعرف حقًّا مقدار قوتنا.

الربُّ قريبٌ مِن الذين يتألّمون أو يُجرَّبون. لكنّنا ننسى ذلك نحن الضُّعفاء والبائسين. يغرق الأشخاص أحيانًا في دوّامة الأحزان، فيمرضون عقلًا وجسدًا. وقد يمرضون روحيًّا أيضًا إذا اضطربت علاقتهم بالله. وفي مثل هذه الحالة المؤلمة قد يُلحِقون أذىً بالغًا بأنفسهم وبالآخرين. بعبارةٍ أخرى، إنَّ الحزن الذي يمكنه أن يكون بركةً للإنسان ويجلب له منفعةً روحيَّةً عظيمة، قد يصبح سببًا لشرٍّ عظيمٍ ودمار. وهذا لا يحدث لأنّ الله تركنا بلا عنايته، بل لأنَّ إيماننا ضعيف.

تذكّروا كيف مشى الرسول بطرس على الماء. عندما رأى المسيح ماشيًا على البحر، توجّه إليه طالبًا: "مُرني أن آتي إليك على الماء"، فأجابه المسيح: "تعالَ". فنزلَ بطرس من السفينة، واتّجه نحو الربّ فوق الأمواج. لكنّه فجأةً استخدم منطقه وفكّر: "أنا أمشي فوق الماء، وقد أغرق في أيّة لحظة"، فغاصَ في الماء على الفور وبدأ يغرق. لم يغرق لأنّ أمْر المسيح فقَد قوّته، فأمْرُ المسيح: "تعالَ إليَّ على الأمواج" لم يبطُل بالنسبة إلى بطرس. ما الذي فقدَه إذًا؟ لقد فقدَ إيمانه. لذلك، مدَّ الربُّ يده إليه وقال: "يا قليلَ الإيمان، لماذا شككتَ؟" (متّى 14: 31). بدأ بطرس يغرق بسبب ضعف الإيمان، ويحصل الأمر عينه معنا أيضًا: ما إنْ نفقد الإيمان، وما إنْ نتوقّف عن النظر إلى المسيح بعَينَي ذهننا، حتّى نسقط فورًا.

وينبغي لنا أن نعرف أمرًا آخر: لكلِّ إنسانٍ مقياسه الخاصّ من القوَّة الروحيَّة. قد تركلُ أحدَهم فيبتسم وكأنَّ الأمر لا يعنيه، بينما تطلب من آخرَ بأدبٍ: "عذرًا، من فضلك، تراجع خطوةً إلى الوراء"، وعلى الرغم من قولك "من فضلك" و"عذرًا"، يشعر بالإهانة والارتباك. الناس مختلفون، وهذا يفرض علينا أن نكون شديدي الانتباه في طريقة تواصلنا مع الآخرين. فالقوَّة الروحيَّة لدى الناس تتفاوت تفاوتًا كبيرًا، وتؤثّر في هذا التفاوت عوامل شتَّى: للرجُل نوعٌ من القوَّة الروحيَّة، وللمرأة نوعٌ آخر؛ وللشابّ نوعٌ، وللشيخ نوعٌ آخر؛ وللقدِّيس نوعٌ، ولمَن لديه أهواءٌ نوعٌ آخر؛ وللشخص السليم عقليًّا نوع، وللمريض عقليًّا نوع آخر.

وتتجلّى حالات الناس الداخليَّة بطرائق مختلفةٍ في مظهرهم الخارجيّ. فبعضهم مكتوبٌ على جباههم ما في نفوسهم، فيما يستحيل تخمين الحالة الداخليَّة لآخرين من خلال مظهرهم. قد يضحك البعض مع أنَّهم يختبرون أحزانًا عظيمة، لكنّ هذه الضحكة لا تعني أنّهم لا يعيشون تجارب عميقةً ومؤلمةً بسبب ما يواجهونه في حياتهم.

من الخطأ أن نحكم على حالةِ شخصٍ آخر بناءً على مقياسنا نحن. في شبابي، كنتُ أرتكب أخطاءً كهذه عندما أستمع إلى الاعترافات. وما زال هذا يحدث أحيانًا حتّى الآن، لكنّني تحسَّنتُ قليلًا مع مرور السنين. فأنا الآن أحاول على الأقلّ ألّا أُظهر مشاعري وانفعالاتي ردًّا على ما أسمعه أحيانًا في الاعتراف.

لنفترضْ أنّ شخصًا جاء وهو يبكي لأنّ قطّته مريضة. إنَّ هذا بالنسبة لي سببٌ تافهٌ للبكاء. لكن بالنسبة إلى هذا الرجل، مرضُ قطَّته سببٌ حقيقيٌّ للحزن، يملأ قلبه بالقلق والمعاناة. وينبغي أن تحاولوا فهْمَ حزنه. لا يمكنكم أن تضحكوا وتقولوا: "ها! يا له من هراء! هل يستحقُّ الأمر البكاء من أجل قطَّة؟". كلّا، عليكم أن تفهموه. فمرض قطَّته بالنسبة إليه مسألةٌ جدّيّة، إنَّه أمرٌ مهمٌّ له.

هذا يعطيني انطباعًا بأنّ ثمّة أشخاصًا قد يُصابون بصدمةٍ لا شفاء منها بسبب أبسط الأمور، هي أمورٌ لا نوليها نحن أيَّ انتباه، أو لا وجود لها أصلًا في نظرنا. ما ترونه أنتم عديم القيمة، قد يكون بالنسبة إلى غيركم أمرًا بالغ الأهمّيّة. ينبغي أن نتذكّر هذا الأمر دائمًا، نحن الكهنة وأنتم الأهل وكلُّ مَن يضطرُّ إلى التواصل مع الآخرين كثيرًا، وأن نكون في غاية الترفُّق، وأن نضع أنفسنا في مكان الآخر، وألّا نقول: "ما تقوله مبالَغٌ فيه وليس أمرًا جدّيًّا". فإذا قال أحدٌ إنَّه متألِّم أو حزين، فهو كذلك بالفعل. وبالطبع، يمكنكم أحيانًا -من باب التخفيف عنه- أن تقولوا له: "لا تقلق، الأمر ليس بالسوء الذي يبدو عليه في البداية". لكن في الوقت عينه، عليكم أن تُظهِروا له أنّكم تفهمونه: "نعم، ما حدثَ يُسبّبُ لكَ ألمًا ومعاناة". لا ينبغي أن تستخفّوا به وتقولوا: "لا يوجد في هذا ما يدعو إلى الحزن".

أتذكّر حادثةً تركَتْ في نفسي أثرًا عميقًا. حين كنتُ أعيش في الجبل المقدّس مع الشيخ يوسف (الفاتوبيذي)، مرّت أخويّتنا بتجربة قاسيةٍ جدًّا وحُزنٍ عظيم. زار الشيخ يوسف، وأنا معه، عددًا من الآباء الروحيِّين الآثوسيّين، فقد أراد أن يتحدّث معهم للبحث في ما ينبغي لنا فعله لتجاوز الصعوبات التي نمرّ بها.

كان عليه أن يجد مخرجًا للوضع. جُلنا تقريبًا في أنحاء الجبل كلّه، والتقينا بكثيرٍ من الشيوخ، وقالوا لنا كلّهم كلامًا روحيًّا، ودعمونا بصلواتهم وكلمات الوداع. إلّا أنّ اللقاء الذي ترك في نفسي أعمق الأثر كان مع الشيخ إميليانوس، رئيس دير سيمونوبيترا. حين كان الشيخ يوسف يصِفُ له التجربة التي حلّت بأخويّتنا، توقَّعتُ في تلك اللحظة أن يقول الأب إميليانوس: "إنّها تجربة، عليكم أن تحتملوها. لا تقلقوا، كلُّ شيءٍ سيمرّ"، وما إلى ذلك. لكن بعد أن أصغى إلى شيخنا، قال الأب إميليانوس شيئًا مختلفًا تمامًا:

"حقًّا، أيُّها الشيخ، قد اعترضَتْ طريقَكم تجربةٌ عظيمة، عظيمةٌ جدًّا. أنتم في وضعٍ صعبٍ للغاية. وأنا أفهم تمامًا مدى مأساويّة هذا الوضع. حتّى إنَّك جئتَ إلى سيمونوبيترا لتشاركني مشكلتكم".

عند كلماته الأولى، خطرَ في بالي على الفور: "أهكذا يريد أن يدعمنا؟ إنّ كلماته تُغرقنا أعمق في القاع لا أكثر". إلّا أنّني أدركتُ، بعد ذلك، أنّ الأب إميليانوس كان يُظهِر بكلماته مدى فهمه لنا. لقد دخل في عُمق موقف الشيخ يوسف. ربَّما لم يرَ آخرون أنّ وضعنا كان بهذه الصعوبة، وربما ظنّوا أنّ الأمر يَسير، وأنّ علينا فقط أن نحتمله. لكن بالنسبة لنا، كان الأمر مسألة حياةٍ أو موتٍ لأخويّتنا، مسألةً متعلّقةً بوجودها الروحيّ والجسديّ. وقد فهِمَ الأب إميليانوس هذا تمامَ الفهم.

أكرّر: من المهمِّ أن ندرك أنَّ لكلِّ إنسانٍ قوَّته الخاصّة، وقدراته الخاصّة، وحساسيَّته الخاصّة. ما قد يكون تافهًا أو عديم الأهمّيّة بالنسبة إليك، قد يكون أمرًا بالغ الأهمّيّة والخطورة لشخصٍ آخر.

لا زلتُ أتذكّر الأخطاء التي ارتكبتُها في هذا الصدد. فعلى سبيل المثال، وقعَ حادثٌ ذات مرَّةٍ في الجبل المقدّس. لم يمُتْ أحد، لكن في الساعات الأولى بعد الحادث، شاعَ خبرٌ أنَّ راهبًا قد تعرَّضَ لحادثِ سير. وفي اندفاع شبابي وعدم نُضجي، هرعتُ إلى الشيخ يوسف، وطرقتُ بابه، ودخلتُ على عجل، وقلتُ باندفاعٍ ومن دون تفكيرٍ:

"أيُّها الشيخ، لقد تعرَّضَ راهبٌ لحادث سيّارة! وصلَنا الخبر من دافني. لقد كان حادثًا مروِّعًا".

لم يخطر ببالي حينها أنّ الشيخ يوسف كان يعاني ضعفًا في القلب، وأنّني كنتُ أحمل إليه خبرًا فظيعًا. لا يجوز أن تفعلوا ذلك مع أشخاصٍ لديهم مشكلاتٌ في القلب؛ بل يجب أن تُبلِّغوهم مثل هذه الأخبار المروّعة بحذر، لا على نحوٍ مباشر وصادم.

حين اندفعتُ إلى الداخل على ذلك النحو، كان الشيخ جالسًا يقرأ كتابًا. وما إن سمع منّي هذا الخبر المروِّع حتّى تغيَّر وجهه تمامًا، وكأنّه فقَدَ توازنه. رسمَ إشارة الصليب على نفسه، وقال بصوتٍ ضعيف: "يا لها من كارثة"...

بعد قليل، أدركتُ مدى خطورة الخطأ الذي ارتكبتُه. ماذا لو أُصيبَ الشيخ بأزمةٍ قلبيّةٍ بعد سماعه الخبر الذي حملتُه له؟ أنا أبلغتُه الخبر ثمّ هدأت، وكأنّ الأمر انتهى بالنسبة لي. لكن لدى الآخرين قدراتٌ مختلفة، ولا سيّما كبار السنّ. والآن، بعدما تقدّم بي العمر، أرى أنّ قوّة الثلاثينيّ تختلف تمامًا عن قوّة الستّينيّ.

لذلك، من الحسَن أن تُصلّي الكنيسة إلى الله كي ينجّينا من كلّ حزن. بذلك، هي تُحذِّرنا من الاقتراب من العاصفة. فإذا سقطتُم فيها، هل ستتمكّنون من الخروج منها سالمين؟ لكن عاجلًا أم آجلًا، ستجدُون أنفسكم، لا محالة، في قلب عاصفةٍ تأتيكم من حيث لا تتوقّعون. قد يرى الناس هذه العاصفة كبيرةً أو صغيرة، لكنّكم ستنظرون إليها من خلال منظوركم أنتم. فكلّ إنسانٍ يتعامل مع التجارب والصعوبات التي تحلّ به بحسب إدراكه الشخصيّ.

فليُنجِّنا الربُّ من كلّ حزن - أو على الأقلّ، فليمنَحنا التعقُّلَ لنُحسِنَ الاستفادة من الأحزان التي تحلُّ بنا. فهذا هو الأمر الضروريّ حقًّا: أن نُحسِنَ التعامل مع أحزاننا. وفوق كلِّ شيء، مع حزننا الأخير، الذي سيزورنا في ساعة رحيلنا عن هذا العالم. ليمنحْنا الربُّ في تلك الساعة التعقُّل والحكمة، حتّى نلاقي الموت بطريقةٍ مرضيَّة له.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitan Athanasios of Limassol (2023). "We Must Be Careful About How We Talk to Others: Seventh Talk on the Divine Liturgy, Part A". In *OrthoChristian*. Link.

الاختبارات الأصيلة والمزيَّفة لنعمة الله[1]

الأرشمندريت جاورجيوس (كابسانيس)

كما تعلمون، إنّ هدف حياتنا هو اتّحادنا بالله. فكما يقول الكتاب المقدّس، خُلِقَ الإنسان "على صورة الله وشبهه"، أي لكي يتّحد به. وشَبَهُ الإنسان بالله يسمِّيه آباؤنا القدّيسون "التألُّه". أترَون مدى عظمة هدف حياة الإنسان؟ لا أن يصبح الإنسان أفضل أو أكثر فضيلةً فحسب، بل أن يصبح إلهًا بالنعمة. وما الفرق بين الله القدّوس والإنسان المتألّه؟ الفرق هو أنّ خالقنا هو إلهٌ بالطبيعة وفقًا لطبيعته، أمّا نحن فنصبح آلهةً بالنعمة، إذ نبقى بشرًا بالطبيعة، لكنّنا نتألّه بنعمته.

عندما يتّحد الإنسان بالله بالنعمة، يقتبل أيضًا أن يختبر الله، ويشعر بالله. وإلّا، فكيف يمكننا أن نتّحد بالله من دون أن نشعر بنعمته؟

كان بإمكان المجبولَين في الفردوس أوّلًا، قبل أن يخطآ، أن يتحدَّثا مع الله ويشعرا بالنعمة الإلهيَّة. خلَقَ الله الإنسان ليكون كاهنًا، ونبيًّا، وملكًا؛ كاهنًا لكي يقبل وجوده والعالم بوصفهما عطيّتَين من الله، ويقدّم في المقابل نفسَه والعالم إلى الله، على نحوٍ إفخارستيٍّ وتمجيديّ. ونبيًّا لكي يفهم أسرار الله. وملِكًا لكي يسود على الخليقة المادّيّة وعلى نفسه، ولكي يستخدم الطبيعة لا كطاغيةٍ بل كحاكم، ولا يُسيء استخدام الخليقة بل يستخدمها بشُكر. اليوم، لا يستخدم الإنسان الطبيعة استخدامًا منطقيًّا، بل يتصرّف بأنانيّةٍ وحماقة، الأمر الذي يؤدّي إلى تدمير محيطه الطبيعيّ وتدمير نفسه.

لو لم يخطأ الإنسان ويستبدل محبّته وطاعته لله بالأنانيّة، لما انفصلَ عن الله، بل لبقيَ ملكًا وكاهنًا ونبيًّا. مع ذلك، فإنّ الله القدّوس الذي يتألّم من أجل خليقته، يرغب في إعادة الإنسان إلى الحالة التي يمكنه فيها أن يصبح من جديدٍ كاهنًا ونبيًّا وملكًا حقيقيًّا، ويكون قادرًا على اقتبال اختبار الله من جديدٍ والاتّحاد به. ولهذا،

[1] حديث مسجّل للأرشمندريت جاورجيوس من دير القدّيس غريغوريوس المقدّس بجبل آثوس، بتاريخ 14/27 كانون الثاني 1989، بدعوةٍ من صاحب الغبطة نيقوديموس، مطران بيريسو وجبل آثوس وأراميري.

نرى الله، في تاريخ العهد القديم، يُهيّئ رويدًا رويدًا خلاصَ الإنسان بمجيء ابنه الوحيد، فيمنح نِعَمًا كتلك التي تمتَّع بها الإنسان قبل سقوطه، مثل نعمة النبوّة.

في العهد القديم، نالَ رجالٌ نعمة النبوّة وعاينوا مجدَ الله، مثل النبيّ إيليّا، والنبيّ إشعياء، والنبيّ موسى. إلّا أنّ هذه النعمة لم تُعطَ عمومًا للجميع، ولم تمتدّ طيلة فترة حياة الذين نالوها، بل كانت نعمةً جزئيّةً منحَهُم إيّاها الله لغرضٍ محدّدٍ وفي مناسباتٍ معيَّنة. بالتحديد، كلّما أراد الله أن يُعلن هؤلاء الرجال الصالحون للعالم مجيء المسيح أو يُعلنوا إرادته، كانوا يُمنَحون القدرة على اقتبال بعض الاختبارات والرؤى.

مع ذلك، تنبّأ النبيّ يوئيل بأنّه سيأتي وقتٌ يمنح فيه الله نعمة الروح القدس، لا فقط لرجالٍ مختارين ولغرضٍ محدّد، بل لجميع الناس. هذا ما تقوله نبوءة يوئيل: "... ويكون بعد ذلك أنّي أسكبُ روحي على كلّ بشَرٍ"، أي سأُعطي روحي لكلّ شخص، "فيتنبّأ بنوكُم وبناتُكم، ويحلم شيوخُكم أحلامًا، ويرى شبابكُم رؤى" (يوئيل 2: 28). أي سيرى شعبي رؤىً روحيّة، وسيُعاين أسرارَ الله. حدثَ هذا السَّكبُ للروح القدس في يوم الخمسين. ثمّ مُنِحَت نعمةُ الروح القدس للكنيسة بأكملها. لم تُعطَ هذه النعمة خلال فترة العهد القديم لأنّ المسيح لم يكن قد تجسَّدَ بعد. لكي يهبَ الله نعمة الروح القدس لجميع الناس، كان لا بُدَّ من استعادة شركة الإنسان مع الله أوّلاً. هذه الشركة حقّقَها مخلِّصُنا المسيح من خلال تجسُّده.

لم يكن اتّحادُ الله الأوّل بالإنسان في الفردوس أقنوميًّا، ولهذا فشِلَ. أمّا الاتّحاد الثاني فهو أقنوميّ، أي شخصيّ. في أقنوم المسيح، اتّحدت الطبيعة البشريّة بالطبيعة الإلهيّة إلى الأبد، من دون تشوُّش، وعلى نحوٍ صحيح، ومن دون انقسامٍ وانفصال. ومهما خطِئَ البشر، لم يعُد من الممكن أن تنفصل الطبيعة البشريّة عن الله، لأنّه في يسوع المسيح، الإله-الإنسان، اتّحدَت إلى الأبد بالطبيعة الإلهيّة.

لذلك، لكي يتمكّن الإنسان من اقتبال الروح القدس، ولكي يصبح كاهنًا وملكًا ونبيًّا، ويعرف أسرار الله ويشعر به، يجب أن يصبح عضوًا في جسد المسيح، أي الكنيسة. يسوع المسيح هو الكاهن والملك والنبيّ الوحيد والحقيقيّ والكامل. وما خُلِقَ آدم وحوّاء لتحقيقه وفشِلا فيه بسبب الخطيئة والأنانيّة، حقَّقه المسيح. الآن، نستطيع كلُّنا، نحن المتَّحدين بالمسيح، أن نشارك في أدوار المسيح الثلاثة: الدَّور الملكيّ، والنبويّ، والكهنوتيّ. هنا يجب أن نوضّح أنّ المسيحيّ ينال الكهنوت بالمعموديّة المقدّسة والميرون، ولكن

ليس الكهنوت الخاصّ الذي يُنال من خلال السيامة، والذي من خلاله ينال خُدّامُ الكنيسة النعمة لإقامة الخدمة في الكنيسة ورعاية العلمانيّين.

ليس العلمانيّون فقط مَن هم مِن غير الكهنة، بل هم أولئك الذين، من خلال المعموديّة المقدّسة والميرون، ينالون الحقّ في أن يكونوا أعضاءً في شعب الله وجسد المسيح، لكي يشاركوا في أدوار المسيح الثلاثة. في الواقع، كلّما كان المسيحيّ عضوًا أكثر عافيةً ووعيًا ونشاطًا في شعب الله وفي جسد المسيح، شاركَ أكثر في الحقّ الكهنوتيّ والنبويّ والملكيّ الذي للمسيح، ونالَ اختبارًا أكبر لنعمته وشعورًا أعظم بها، كما نرى في حياة قدّيسي إيماننا.

أشكال اختبار نعمة الله

ما هي اختبارات النعمة التي يمكن أن يقتبلها المسيحيّ بحيث لا يكون إيمانه وحياته المسيحيّان أمرًا عقليًّا وخارجيًّا بالنسبة إليه، بل شعورٌ روحيٌّ حقيقيٌّ باللّه، وشركةٌ معه، وسُكنى لله يشارك فيها الإنسان الكامل؟

أوّلاً وقبل كلّ شيء، هي المعرفة الداخليّة بأنّه يَجِدُ المعنى الحقيقيّ لحياته من خلال الإيمان بالله. يشعر بأنّ إيمانه بالمسيح هو إيمانٌ يُريحُه داخليًّا ويعطي معنىً لحياته ويوجّهه، وبأنّه نورٌ قويٌّ يُنيره. عندما يدرك الإيمانَ المسيحيّ داخل نفسه بهذه الطريقة، يبدأ في عَيْشِ نعمة الله. لا يكون الله أمرًا خارجيًّا بالنسبة إليه.

ويقتبل الإنسان اختبارًا آخر لنعمة الله عندما يسمع في قلبه دعوة الله له إلى التوبة عن أعماله المُظلِمة والخاطئة، والعودة إلى الحياة المسيحيّة، والاعتراف، والسَّير في طريق الله. إنَّ هذا الصوت الإلهيّ الذي يسمعه في داخله هو اختبارٌ مبكرٌ لنعمة الله. خلال تلك السنوات كلّها التي عاشها بعيدًا عن الله، لم يكن يستطيع أن يفهم أيّ شيء.

يبدأ في التوبة: يعترف لأوّل مرّةٍ في حياته للأب المعرّف. بعد الاعتراف، يشعر بسلامٍ وفرحٍ عظيمَين لم يشعر بهما من قبل. ثمّ يقول: "لقد ارتحتُ". هذه الراحة هي زيارة النعمة الإلهيّة لنفْسٍ تابَتْ ويرغب الله في أن يُريحها.

إنَّ الدموع التي يذرفها المسيحيُّ التائب عندما يصلّي ويطلب المغفرة من الله، أو عندما يعترف، هي دموع التوبة. هذه الدموع مُريحةٌ جدًّا. إنّها تجلب سلامًا كبيرًا لنفْسِ الإنسان. يشعر الإنسان بأنّ هذه الدموع عطيّةٌ من النعمة الإلهية واختبارٌ لها.

كلّما عمُقَتْ توبة الإنسان ووصلَ إلى محبّةٍ لله أكبر، وصلّى بعشقٍ إلهيّ، أصبحت دموعُ التوبة هذه دموعَ فرح، ودموعَ محبّةٍ وعشقٍ إلهيّ. هذه الدموع التي هي أسمى من دموع التوبة، هي أيضًا زيارةٌ أعظم لنعمة الله واختبارٌ أسمى لها.

نتقدّم للاشتراك في جسد المسيح ودمه بعد أن تُبنا واعترفنا، وصُمنا وتهيّأنا روحيًّا. بماذا نشعر بعد المناولة المقدّسة؟ نشعر بسلامٍ عميقٍ في نفوسنا، وبفرحٍ روحيّ. هذه أيضًا هي زيارةٌ للنعمة الإلهيّة واختبارٌ لله.

مع ذلك، ثمّة اختباراتٌ أخرى لله أسمى. الاختبار الأعظم لله هو معاينة النور غير المخلوق. هذا النور رآه تلاميذ الربّ على جبل التجلّي، رأوا المسيح يضيء كالشمس بنورٍ سماويّ وإلهيّ. لم يكن نورًا مادّيًّا مخلوقًا مثل نور الشمس والأنوار المخلوقة الأخرى، بل النور غير المخلوق، أي نور الله، نور الثالوث القدّوس. أولئك الذين تنقّوا تمامًا من أهوائهم وخطاياهم، ويُصلّون صلاةً حقيقيّةً ونقيّة، يستأهلون هذا الاختبار العظيم، أن يُعاينوا نورَ الله في هذه الحياة. وهذا النور هو ما سيُضيء في الحياة الأبديّة. لا يرونه منذ الآن فحسب، بل يُرَون أيضًا في هذا النور منذ الآن، لأنّ هذا النور يغلّف القدّيسين. نحن لا نراه، لكنّ الأنقياء القلوب والقدّيسين يرَونه، والهالة المُشرقة التي تُرسَم في الأيقونات حول وجوه القدّيسين هي نور الثالوث القدّوس الذي أنارَهُم وقدَّسَهُم.

نقرأ في سيرة القدّيس باسيليوس الكبير أنّه عندما كان يصلّي في قلّايته، كانوا يرونه يضيء بالكامل، وكذلك كانت قلّايته تُضيء بالنور غير المخلوق. نرى الأمرَ عينه في سيَر العديد من القدّيسين.

لذلك، أن يستأهل المرءُ معاينة النور غير المخلوق هو أحد أعظم اختبارات الله، اختبارٌ لا يُعطى للجميع بل لعددٍ قليلٍ جدًّا، لأولئك الذين تقدّموا في الحياة الروحيّة. وفقًا للقدّيس إسحق السريانيّ، يبلغ شخصٌ واحدٌ

تقريبًا في كلّ جيلٍ رؤية النور غير المخلوق بوضوح. مع ذلك، يوجد حتّى هذا اليوم مسيحيّون يستأهلون اختبار الله بهذه الصورة الفريدة.

بالطبع، وَجبَ أن نقول أيضًا إنّ رؤية نورٍ لا تعني رؤية النور غير المخلوق. فالشيطان يخدع الناس ويُظهِر لهم أضواءً أخرى، شيطانيّة أو نفسيّة، ليعتقدوا أنّه النور غير المخلوق، في حين أنّه لا يكون كذلك. لهذا، يجب على كلّ مسيحيٍّ سمع شيئًا أو عاش اختبارًا معيّنًا، ألّا يقبله كما لو كان من الله، لأنّ الشيطان قد يخدعه. يجب عليه أن يعترف بذلك لأبيه المُعرّف الذي سيُخبره حينها إذا كان من الله أو خديعةً شيطانيّة. مطلوبٌ الكثير من الحذر في مثل هذه الحالات.

تحديد الاختبار النقيّ لنعمة الله

دعونا الآن ننظر إلى الشروط التي تضمن أن تكون اختباراتنا المتنوّعة حقيقيّةً لا مزيّفة.

الشرط الأوّل هو أن نكون **رجال توبة**. إذا لم نتُبْ عن خطايانا ونُنقِّ أنفسنا من أهوائنا، لا يمكننا أن نعاين الله. كما يقول الربّ في تطويباته: "طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ". كلّما نقّى الإنسان نفسَه من أهوائه، وتابَ وعاد إلى الله، استطاعَ أن يشعر بالله ويعاينه على نحوٍ أفضل.

من الخطأ أن نحاول الحصول على اختباراتٍ لله بطرائق وأساليب اصطناعيّة، كما يحدث في بِدَع الهندوسيّة واليوغا. فتلك الاختبارات ليست من الله، بل مُستمدّةٌ من أساليب نفسيّة.

يقول لنا الآباء القدّيسون: "أعطِ دمًا وخُذْ روحًا". بتعبيرٍ آخر، إذا لم تُعطِ دمَ قلبكَ بتوبتك، وصلاتك، وصومك، ونُسكك، لن تتمكّن من اقتبال نعمة الروح القدس. تُعطى الاختبارات الروحيّة الأصيلة لأولئك الذين يتواضعون ولا يطلبون اختباراتٍ روحيّةً بل يسألون الله التوبة والخلاص. تُعطى لأولئك المتواضعين الذين يقولون: "يا إلهي، أنا لستُ أهلاً لتلقّي زيارةٍ من نعمتك وعزائك الإلهيّ والسماويّ ولذّاتِكَ الروحيّة". أمّا أولئك الذين، بسبب الكبرياء، يطلبون من الله أن يمنحهم اختبارات، فلن يمنحهم اختباراتٍ حقيقيّةً وأصيلةً بسبب كبريائهم. لذلك، فالشرط الثاني هو **التواضع**.

الشرط الثالث لتلقّي اختبارٍ روحيّ حقيقيّ هو أن نكون **في الكنيسة**، لا خارج الكنيسة. فخارج الكنيسة سيَخدَعُنا الشيطان. عندما ينفصل خروفٌ عن القطيع، سيقضي عليه الذئب. أمّا ضمن القطيع فيوجد أمان. المسيحيّ داخل الكنيسة آمِن؛ أمّا عندما يترك الكنيسة، يصبح معرَّضًا لخديعته هو، وخديعة الآخرين والشياطين. لدينا الكثير من الأمثلة على العديد من الأشخاص الذين لم يُطيعوا الكنيسة وخُدِعوا في حالتهم الروحيّة هذه. اعتقدوا أنّهم يرون الله أو أنّ الله يزورهم بينما كانت الاختبارات التي يمرّون بها، في الواقع، شيطانيّةً ومُدمِّرةً لهم.

والصلاة النقيّة والحارّة تساعد كثيرًا. في الحقيقة، يمنح الله معظم الاختبارات الروحيّة للإنسان في وقت الصلاة؛ ولهذا، فإنّ أولئك الذين يُصلّون بشوقٍ وحماسةٍ وصبرٍ ينالون عطايا الروح القدس والشعور بنعمة الله.

كما تعلمون، ثمّة صلاةٌ نُردّدها في الجبل المقدّس، وربّما تُردّدونها أنتم أيضًا، وهي: "يا ربّي يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطئ". هذه الصلاة التي تتميّز بأنّها ذهنيّةٌ وقلبيّةٌ ومتواصلة، عندما تُقال بتواضعٍ وشوقٍ ومثابرة، تجلبُ إلى قلب الإنسان الشعور بنعمة الله.

الاختبارات المزيّفة لنعمة الله

يمرّ الناس باختباراتٍ مزيّفةٍ لله عندما يعتقدون أنَّهم يستطيعون بأنفسِهم وبقِواهم الخاصّة، وفي البِدع والجماعات والاجتماعات الدينيّة خارج الكنيسة، أن ينالوا نعمة الروح القدس. يجتمعون ويتولّى "نبيٌّ" جديدٌ دورَ القائد، ويؤمنون بأنّهم يقتبلون نعمة الله.

حدثَ أنّني كنتُ حاضرًا في تجمُّعٍ للخمسينيّين في الولايات المتّحدة الأميركيّة في العام 1966. كانت "كنيستهم" عبارةً عن قاعة مدرسة. في البداية، بدأ شخصٌ في عزف بعض الموسيقى الهادئة واللطيفة، والتي أصبحت تدريجيًّا أقوى وأكثر صخبًا، بحيث أثارت حماسة الحاضرين. توقَّف العزفُ وبدأ الواعظ بالتكلُّم. بدأ هو أيضًا بلُطفٍ ثمّ أخذ يصرخ تدريجيًّا بصوتٍ أعلى.

في النهاية، خلقَ هو أيضًا جوًّا من الحماس. وعندما أُصيبَ جميع الناس بالإيحاء الذاتيّ والهستيريا، بدأوا يصرخون ويلوِّحون بأيديهم ويُطلقون صرخاتٍ غير مفهومة. شعرتُ بأنّ روح الله لم يكن هناك، لأنّ روحه

روحُ سلامٍ لا روح اضطرابٍ وإثارة. لا يأتي روح الله بأساليب اصطناعيّةٍ ونفسيّة. شعرتُ بالأسف على الأولاد الذين كانوا هناك مع والديهم لأنّهم قد يعانون من عواقب هذا العُصاب الجماعيّ.

ثمّة راهبٌ في الجبل المقدّس كان قد اختبر اليوغا الهندوسيّة (يجب أن تعلموا أنّه يوجد نحو 500 بدعة هندوسيّة في اليونان)، وصفَ لي الاختبارات التي يحاولون الحصول عليها هناك. عندما يرغبون في رؤية النور، يفركون أعينهم لكي يروا نجومًا صغيرة. وعندما يرغبون في سماع أصواتٍ غير عاديّة، يضغطون على آذانهم لكي تُصدر أصواتًا.

ينسِبُ بعض الهراطقة إلى الروح القدس مثل هذه الاختبارات النفسيّة التي تُخلَق اصطناعيًّا.

والاختبارات الأخرى في الاجتماعات الهرطوقيّة ليست نفسيّةً فحسب، بل قد تكون شيطانيّة. يتلاعب الشيطان ببعض الناس فيجعلهم يسعون للحصول على مثل هذه الاختبارات، ويقدّم لهم علاماتٍ متنوّعةً ليست من الله، بل منه، أي علامات شيطانيّة. ولا يدرك هؤلاء أنّهم ضحايا للشيطان.

يعتقدون أنّ هذه العلامات سماويّةٌ ومن الروح القدس. يمكن للشيطان أيضًا أن يعطيهم بعض القدرة النبويّة كما يعطيها لـ "الوسطاء". غير أنّ الربّ حذّرنا قائلًا: "لأَنَّهُ سَيَقُومُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ، وَيُعْطُونَ آيَاتٍ عَظِيمَةً وَعَجَائِبَ، حَتَّى يُضِلُّوا لَوْ أَمْكَنَ الْمُخْتَارِينَ أَيْضًا" (متّى 24: 24)، ولن يقتصر عملُ هؤلاء على اجتراح المعجزات والعجائب والعلامات المخيفة. هم مثل ضدّ المسيح الذي، حين سيأتي، لن يقترف أعمالًا شرّيرة، بل سيمارس أعمال الإحسان ويشفي المرضى، وسيقوم بأعمالٍ أخرى مثيرةٍ للإعجاب ليخدع الناس، وحتّى المختارين إذا أمكن، ليُصدّقوه كمخلّصٍ ويتبعوه.

لهذا السبب، يجب أن نكون حذِرين، فلَيس كلّ مَن يستطيع أن يتنبّأ ويصنع علامات هو من الله. كما يقول الربّ: "كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذلِكَ الْيَوْمِ: يَا رَبُّ، يَا رَبُّ! أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا، وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ، وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟ فَحِينَئِذٍ أُصَرِّحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الإِثْمِ" (متّى 7: 22-23).

عرفتُ شابًّا خُدِعَ ببِدَع الشعوذة والخمسينيّة، واعترف بأنّ التجارب المتنوّعة التي مرّوا بها عندما كانوا أعضاء في هذه البِدَع كانت شيطانيّة.

اعترفَ رجلٌ كان ينتمي سابقًا إلى الخمسينيّين بأنّه في تجمُّعاتهم، عندما كانت "نبيّةٌ" تتنبّأ، كان يشعر باضطرابٍ شيطانيّ، وقال إنّه عندما كان يحاول أن يردّد صلاة "يا ربّي يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطئ"، كان التكلُّم بالألسنة يبدأ ويُغرقه، ويمنعه من قول الصلاة.

يجب أن نكون حذِرين بشأن هذه الاختبارات لأنّ الشيطان يتحوّل إلى ملاكِ نور. ينصحنا الرسول يوحنّا قائلًا: "أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لاَ تُصَدِّقُوا كُلَّ رُوحٍ، بَلِ امْتَحِنُوا الأَرْوَاحَ هَلْ هِيَ مِنَ اللهِ" (1 يوحنا 4: 1). ليست كلّ الأرواح من الله. أولئك الذين لديهم موهبة الرسول بولس في تمييز الأرواح (1 كو 12: 10) يمكنهم أن يميِّزوا ما إذا كانت الأرواح من الله أم من الشيطان. ويملك المرشدون الروحيّون في الكنيسة هذه الموهبة. ولهذا، عندما نواجه مشكلاتٍ كهذه، يجب أن نطلب مساعدة مرشدنا الروحيّ، وهو سيحدّد مصدرَ كلّ اختبار.

حتّى الرهبان يمكنهم أن يُخدَعوا. لدينا حالاتٌ في الجبل المقدّس حيث خُدِعَ الرهبان بمثل هذه الاختبارات. على سبيل المثال، ظهر لراهبٍ "ملاكٌ" -كان الشيطان- وقال له: "تعالَ إلى قمّة جبل آثوس لأريكَ معجزاتٍ عظيمة". قاده إلى هناك، وكاد الراهب أن يسقط من فوق جرفٍ لو لم يستدعِ المساعدة الإلهيّة. لقد ارتكب خطأً بالاعتقاد بأنّ الرؤيا كانت من الله، في حين كان ينبغي ألّا يُصدِّق ذلك. يعرف الرهبان أنّه عليهم أن يخبروا شيخَهم إذا ما عاينوا رؤيا، وهو سيُخبرهم إذا كانت من الله أو من الشياطين. حيث توجد الكبرياء، يكون الوقوع في الخديعة محتملًا جدًّا.

عن الخمسينيّين

ليست اختبارات الخمسينيّين من الله، لذلك فهي لا تساعدُهم على المجيء إلى الكنيسة، بل وتقودهم بعيدًا عن الكنيسة، لأنّ الشيطان وحده مَن يهتمّ بإبعاد الناس عن الكنيسة.

كما أنّ انقساماتهم إلى الكثير من البدع والجماعات هي دليلٌ على أنّهم لا يشكّلون كنيسة الله الحقيقيّة. تتكوّن البروتستانتيّة من آلاف البِدَع، وواحدةٌ منها هي الخمسينيّة. في الولايات المتّحدة وحدها، يوجد

أكثر من 39 مجموعة مختلفة للخمسينييّن. والعديد من البِدَع الخمسينيّة لا ترتبط ببعضها البتّة. هذه أسماء بعض المجموعات الخمسينيّة: "جماعة كنيسة إله الجبل"، "الجماعة المتكاملة لكنيسة الله"، "مسرح غار"، "البعثة التي لا تنام"، "كنيسة الأم هورن"، "كنيسة الأم روبرتسون"، "يسوع والبعثة التي لا تنام"، "بقية كنيسة الله"، "كنيسة قداسة الله الأميركيّة المولودة بالنار"، "كنيسة موغارا كوك"، "هيكل كنيسة الله الداوديّ الوطنيّ الروحيّ"، "كنيسة الكتاب المقدّس الرباعيّ".

لو كان روح الله موجودًا في هذه الجماعات، لكانت متّحدة، ولوُجِدَت كنيسةٌ واحدةٌ وليس هذا العدد الكبير من المجموعات المختلفة والمتعارضة.

إلى ذلك، إنّ المظاهر التي تحدث في التئاماتهم، مثل الارتجاف، والسُّقوط على الأرض كما لو كانوا موتى، والصُّراخ بأصواتٍ غير مفهومة، هي ليست من روح الله السلاميّ. نجد ظواهرَ مماثلةً في الديانات الوثنيّة، ويوجد أيضًا العديد من أوجه التشابه مع الظواهر الروحانيّة.

كذلك، هم يزرعون روح الكبرياء معتقدين أنّ الكنيسة بأكملها كانت مخدوعةً على مدى ألفَي عام، بينما هم الذين اكتشفوا الحقيقة في العام 1900. إنّ أوّل مَن أنشأ مجموعة الخمسينيّين هو شخصٌ أميركي. أمّا أوّل خمسينيّ في اليونان، فهو مايكل غوناس، وبشّر قائلًا: "بعد هذه القرون كلّها في أرض اليونان، حدثت بداية زيارة الله مثل يوم العنصرة". وفقًا له، بدأتْ زيارة المسيح في اليونان من خلاله مثل يوم العنصرة! لم يوجد شيءٌ مسيحيٌّ خلال هذه السنوات كلِّها [حسب زعمه]. هل ترَون الغرور والكبرياء الشيطانيّين؟

ماذا عن موهبة "التكلُّم بالألسنة" التي يسعون إليها؟ في الحقيقة، ثمّة في العهد الجديد إشارة إلى "التكلُّم بالألسنة". فقد تكلّم الرُّسل القدّيسون في يوم العنصرة بألسِنة الناس الذين جاؤوا للحجّ في أورشليم، ليُعلّموهم الخبر السارّ. إذًا، موهبة التكلُّم بالألسنة هي نعمةٌ أعطاها الله للرُّسل لغرَضٍ محدّد: لتبشير غير المسيحيّين بالإيمان المسيحيّ. عندما كان الرُّسل القدّيسون يتكلّمون بألسنة، لم ينطقوا بأصواتٍ لا معنى لها مثل المسكونين بالشياطين. لقد تكلّموا بألسنة، وليس أيّة ألسنة، بل ألسنة أولئك الذين كانوا في أورشليم ولم يستطيعوا التحدُّث بلُغة اليهود، لكي يتمكّن هؤلاء من سماع عظائم الله ويؤمنوا به. لذا، لا علاقة للصرخات العديمة المعنى بموهبة "التكلُّم بالألسنة" التي يزعم الخمسينيّون اقتناءها.

الكنيسة الأرثوذكسيّة هي مكان الاختبار الحقيقيّ لنعمة الله

إنّ كنيسة العنصرة هي كنيستنا الأرثوذكسيّة. ولماذا هي كذلك؟ لأنّها كنيسة تجسُّد المسيح وناسوته وموته على الصليب وقيامته والعنصرة. عندما نعزل من عمل المسيح الكامل جزءًا واحدًا فقط، ونبالغ في التركيز عليه ونشرحه شرحًا خاطئًا، يصبح هذا الأمر أحاديّ الجانب وبِدعة. كنيسة العنصرة الحقيقيّة هي الكنيسة التي تقبل عمل المسيح وتعيشه بأكمله، بما في ذلك يوم العنصرة. هل يمكن أن توجد قيامةٌ من دون صليب؟ إذا لم يصلِب الإنسان نفسَه بالصوم والصلاة والتوبة والتواضع والنُّسك، فهل يمكنه أن يرى الله؟ يأتي الصليب أوّلًا في حياة المسيح والمسيحيّ، وتتبعه القيامة والعنصرة. بينما هم يريدون القيامة والمواهب الروحيّة من دون أن يصلبوا أنفسَهم من خلال التوبة والنُّسك والصوم والطاعة للكنيسة. ولهذا، هم لا يشكّلون كنيسة العنصرة.

في كلّ قدّاسٍ إلهيّ في كنيستنا، لدينا عنصرة. كيف يتحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه؟ ألا يتمّ ذلك من خلال حلول الروح القدس؟ في ذلك عنصرة! كلّ مذبحٍ مقدّسٍ في الكنيسة الأرثوذكسيّة هو عليّة العنصرة. في كلّ معموديّةٍ لدينا عنصرة. بنعمة الروح القدس، يصبح الإنسان مسيحيًّا ويصبح واحدًا مع جسد المسيح. كلّ سيامةٍ لشمّاس وكاهن، وبالطبع أسقف، هي عنصرةٌ جديدة. يحلّ الروح القدس ويجعل الإنسان عاملًا لله.

كلّ اعترافٍ لإنسانٍ مسيحيّ هو عنصرة. في اللحظة التي يركع فيها المسيحيّ أمام أبيه المعرّف، ويخبره بتواضعٍ وتوبةٍ بخطاياه، ويقرأ له أبوه المعرّف الحلّ، يُغفَر له بنعمة الروح القدس.

في كلّ تجمُّعٍ وفي كلّ سرٍّ من أسرار الكنيسة استمرارٌ للعنصرة، لأنّها تُجرى بحضور الروح القدس. ولهذا تبدأ جميع الأنشطة تقريبًا، والصلوات والأسرار في الكنيسة بصلاة: "أيّها الملك السماوي، المعزّي، روح الحقّ... هلمّ واسكن فينا...". نطلب من المعزّي أن يأتي، أن يحلّ الروح القدس. وهو يأتي. فحيثُما تجتمع الكنيسة الأرثوذكسيّة، كنيسة المسيح الحقيقيّة، تكون أيضًا نعمة الروح القدس حاضرة.

كلّ قدّيسٍ في كنيستنا هو رجلٌ حاملٌ للروح، ومليءٌ بمواهب الروح القدس، ورجل العنصرة.

نطلب في الصلاة الربانيّة قائلين: "ليأتِ ملكوتك"، بمعنى: "لتأتِ نعمة روحك القدّوس". ملكوت الله هو نعمةٌ من الروح القدس. لذلك، مع "أبانا الذي في السماوات"، نحن نطلب الروحَ القدس.

وصلاة "يا ربّي يسوع المسيح، ابن الله، ارحمني أنا الخاطئ"، تُقال أيضًا من خلال نعمة الروح القدس. لأنّه كما يقول الرسول بولس: "لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: «يَسُوعُ رَبٌّ» إِلاَّ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ" (1 كو 12: 3). لا أحد يستطيع أن يستدعي يسوع المسيح إلّا من خلال نعمة الروح القدس.

علاوةً على ذلك، وحده الماء المقدّس الأرثوذكسيّ لا يفسد. أولئك الذين لديهم ماءٌ مقدّسٌ في منزلهم يعلمون أنّه لا يفسد مهما كان قديمًا.

هذا هو إيماننا، الحقيقيّ والأرثوذكسيّ

فهل نبتعد عن هذا الإيمان ونتبع بعض "المخلّصين" الأميركيّين الجدُد الذين يعتقدون أنّ وجود الكنيسة بدأ معهم؟ فقط تخيّلوا أيّ غرورٍ شيطانيّ لديهم! الكنيسة موجودةٌ منذ ألفَي عام، وهم يقولون إنّ منهم، من الخمسينيّين وغيرهم من الهراطقة، يبدأ الإيمان الحقيقيّ.

في القرن الرابع عشر، عندما حاربَ الراهب الغربيّ برلعام التعليمَ الأرثوذكسيّ حول القوى الإلهّية والنور غير المخلوق كما عاشه الرهبان في الجبل المقدّس، أظهر الله الراهبَ الآثوسيّ غريغوريوس بالاماس، لاهوتيًّا ومعلّمًا عظيمًا للإيمان الأرثوذكسيّ. والآن أيضًا، لو لم تكن بدعةُ الخمسينيّة موجودة، لما كنّا قد اجتمعنا هنا. لما كنّا قد عمّقنا إيماننا. لما كنّا قد اعترفنا بإيماننا. وهكذا، فإنَّ ما سعوا لفعله ضدّ الكنيسة يرتدّ في نهاية الأمر ضدّ البدع والشيطان. يقول الرسول بولس: "لأَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَكُمْ بِدَعٌ أَيْضًا، لِيَكُونَ الْمُزَكَّوْنَ ظَاهِرِينَ بَيْنَكُمْ" (1 كو 11: 19). لا بدّ من أن توجد بِدَعٌ أيضًا لكي يظهر الإيمان في الثابتين. الآن فيما تتعرّض كنيستنا المقدّسة لهجوم الإلحاد والملذّات الجسديّة والبِدَع من خلال الراديو والتلفزيون والصحف ووسائل أخرى، فإنَّ هذا هو الوقت الذي سيظهر فيه المسيحيّون الأرثوذكسيّون المُخلِصون والحقيقيّون والمجاهدون والشُّهود على الإيمان الأرثوذكسيّ.

كلّ مسيحيٍّ أرثوذكسيٍّ يحافظ على إيمانه الأرثوذكسيّ بالمسيح في هذه الأوقات الحَرِجة للغاية، سينال بركةً عظيمةً ومكافأةً عظيمةً من الله القدّوس. وذلك لأنّه، في هذا الزمن الشرّير والفاسد، لم تضلّه الوثنيّة المعاصرة والآلهة الكاذبة، ولم يَحْنِ ركبةً لها، بل بقيَ ثابتًا وراسخًا في إيماننا الأرثوذكسيّ.

لذلك، نرجو ألّا يصبح أيُّ أرثوذكسيّ يونانيّ "يهوذا"، خائنًا ومرتدًّا عن إيماننا الأرثوذكسيّ المقدّس. عسى أن ينير الله جميع الذين ضلّلهُم الشرّير بسبب جهلهم، دافعًا بهم إلى الخداع والبِدَع، وأن يعودوا إلى إيماننا الأرثوذكسيّ المقدّس لكي يكون لديهم رجاء الخلاص.

قد نكون جميعًا خطأة، ولكن عندما نكون داخل كنيستنا الأرثوذكسيّة المقدّسة، نملك رجاء الخلاص. وبخلاف ذلك، حتّى ولو كنّا "صالحين" خارج الكنيسة، فليس لدينا رجاءٌ للخلاص. كلّنا، نحن الذين داخل الكنيسة، سنتوب ونعترف وسيغفر الله لنا ويرحمنا. أمّا خارج الكنيسة، مَن الذي سيخلّصنا؟ أيّ روح قدسٍ سيغفر خطايانا؟ وأيّة كنيسةٍ ستتشفّع بعد موتنا من أجل نفوسنا؟ لذلك، فلْيعلمْ كلُّ أرثوذكسيٍّ يموت أرثوذكسيًّا أنّ لديه رجاءٌ للخلاص. وكلّ شخصٍ يغادر الكنيسة، حتّى ولو كان يعتقد أنّه قام بأعمالٍ صالحة، ليس لديه رجاءٌ للخلاص.

لهذا، أيّها الإخوة، لنبقَ في كنيستنا الأرثوذكسيّة، مؤمنين وثابتين بعنادٍ مقدّسٍ حتّى نهايتنا لكي يكون لدينا جميعًا، بنعمة الله وبركة والدة الإله، رجاءٌ لخلاصنا.

المصدر: مجلة "القدّيس غريغوريوس" الصادرة عن دير القدّيس غريغوريوس المقدّس بجبل آثوس

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Archimandrite George (Kapsanis) of Gregoriou (1989), “Genuine and False Experiences of the Grace of God”, *Magazine of the Saint Gregory Monastery of the Holy Mountain.* Available online through *Paracletos Greek Orthodox Monastery*. Link.

نصٌّ آبائيٌّ أحبّه القدّيس بورفيريوس

علّم الشيخ بورفيريوس باستمرارٍ أنّنا يجب أن نحبّ إخوتنا البشر بطريقةٍ تجعلنا ننظر إليهم كما ننظر إلى أنفسنا.

في إحدى المرّات، طلبَ من أحد أبنائه الروحيّين أن يصوّر له المقطع التالي للقدّيس سمعان اللاهوتيّ الحديث، وأخذ يوزّعه على زوّاره:

"يجب أن ننظر إلى جميع المؤمنين كشخصٍ واحد، وأن نعتبر المسيحَ موجودًا في كلّ واحدٍ منهم.

يجب أن نحبّهم محبّةً تجعلنا مستعدّين للتضحية بحياتنا من أجلهم.

لأنّ الواجب يُحتِّمُ علينا ألّا نقول عن أيّ شخصٍ إنّه شرّير، أو أن نفكّر في ذلك، بل أن ننظر إلى الجميع على أنّهم صالحون. إذا رأيتَ أخًا مُحارَبًا من هوى معيّن، فلا تكرهه. اكرَه الهوى الذي يحاربه.

وإذا رأيتَ عادات ورغبات الخطايا السابقة تُرهبه، فأشفقْ عليه. ربّما أنتَ أيضًا ستتعرّض للتجربة، لأنّكَ أنتَ أيضًا مخلوقٌ من مادّةٍ تتحوّل بسهولةٍ من الخير إلى الشرّ. تُهيّئكَ المحبّة تجاه أخيكَ لأن تحبّ الله أكثر. لذا، فإنّ سرّ محبّة الله هو محبّة أخيك.

لأنّه إذا كنتَ لا تحبُّ أخاكَ الذي تراه، فكيف يمكن أن تحبّ الله الذي لا تراه؟

"لأنّ مَن لا يحبُّ أخاه الذي أبصره، كيف يقدر أن يحبّ الله الذي لم يُبصره؟" (1 يو 4: 20)".

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Published by John Sanidopoulos (2010). "A Patristic Text Elder Porphyrios Loved". Link.